



حَسَن حُسْنِي عبد الوهَّاب

شَهِيرَات التُونَسِيَّات

بحث تاريخي أدبي في حياة النساء النوابغ بالقطر التونسي
من الفتح الإسلامي إلى الزمان الحاضر

طبعة خاصّة مزودة برسومات فنيّة

منشورات الكريديف - 2020







شهرات التونسيات



حَسَن حُسْنِي عَبْد الْوَهَّاب
(1884 - 1968)





تصدير

عزيزتي القارئة

عزيزي القارئ

يسعدني أن أضع بين يديك هذا المؤلف القيم في ثوبه الجديد، وهو ما كان حلما راودني منذ تفتني بكونه غير متوفر بالدورة الخامسة والثلاثين لمعرض تونس الدولي للكتاب، مقارنة بالطبعات المتجددة لكتاب معاصرين لحسن حسني عبد الوهاب. وإذ حزّ في نفسي أن العديد من العارضين لا يعرفون الكاتب أصلا أو أنهم في أحسن الأحوال لم يسمعوا قط بوجود الكتاب تحديدا، فقد عاهدت نفسي على السعي لإعادة نشر «شهرات التونسيات» وبدأت من ذاك الحين في العمل على وضع المسار والآليات الكفيلة بتحقيق الحلم إلى أن شاءت الأقدار أن ألتحق بمركز البحوث والدراسات والتوثيق والإعلام حول المرأة- (الكريديف) فبات اكتمال المسار لتحقيق الحلم ضرورة أكثر من ذي قبل حيث تجاوز الهاجس الشخصي ليصبح حلما مؤسساتيا، يندرج ضمن أولوية الكريديف الهادفة إلى حفظ الذاكرة النسائية وإحيائها.

هذه الطبعة هي باكورة المواجهة بين الذاتي والمؤسساتي. فاهتمامي شخصيا بإحياء الذاكرة وحفظها عموما والذاكرة النسائية خصوصا، ليس وليد الصدفة أو نتاج لتخصّص علمي أو أكاديمي بل هو اهتمام يسكن وجداني منذ الصغر. فعندما تترعرع في أحضان والدين من مربّي الجيل الأوّل للاستقلال، فإنك تنشأ وتكبر على وقع أقاصيص تاريخ أسري من النضال ضدّ المستعمر أو ضدّ الجهل، لن تجد لها أثرا في كتب التاريخ. وعندما تنشأ على حبّ أعلام بلادك وتاريخها، فلا تتهرّج عليك بوجدان وكفاءة مربين أحبّوا وطنهم وأمنوا بدورهم في صناعة الأجيال فكنت أنت وغيرك وما أنتم عليه ترجمة حيّة لهذا الحب. وعندما تسكن مدينة عتيقة وتحبّ أزقتها يوميا في ذهابك وإيابك للدراسة، فإنك ودون أن تدرك، تستبطن تاريخها وتصبح قادرا أن تفكّك لغة فضائها وحجارتها وقراءتها لتمتلك بذلك أدوات كتابة جديدة.

كلّ ذلك يجعل اهتمامك بواقعك ضمن سيرورة متكاملة تربط جذور الماضي بمشاغل الحاضر وتطلّعات المستقبل سواء كان ذلك صلب عملك الأكاديمي وعبر تخصّصك أو نشاطك الجمعياتي الذي ارتكز أساسا على الاستلهام من شخصيات تاريخية كان لها عميق الأثر في إنتاج و تطوير ونشر المعرفة والفكر والسلام عبر التاريخ. فحطّ بنا الرّحال عند «فاطمة الفهرية»، تلك المرأة المغمورة التي عاشت في القرن التاسع لنحدث جائزة متوسطة تحمل إسمها سنة 2017. لم تتوفّر لنا معطيات على حياتها الخاصّة وكان كاتبنا من القليلين الذين تحدّثوا عنها وعن رحلتها من القيروان إلى فاس لتكرّس حياتها وثروتها لبناء أقدم جامعة¹ في العالم.

هي وغيرها كثر ظللن منسيات من التاريخ بالرّغم من دورهنّ الحضاري المحوري، ربّما لأنّ المؤرّخين اللّذين غالبا ما كانوا رجالا، تناسوا وأخفوا عن قصد أو عن غير قصد الدّور البارز للعديد من النّساء فاحتفظت الذاكرة الشعبيّة بقصصهن ومأثرهن.

إنّ هذا الكتاب كما قدّمه كاتبه، هو بحث تاريخي أدبي اهتمّ بالتّوثيق لما أبّلت به التونسيات في حيّز من تاريخنا وهو ما يعطي الدّفع لمركز بحوث وتوثيق وإعلام حول المرأة للتعمّق بشغف في أغوار الذاكرة النسائية وإخراج إنجازاتها للنور وتثمين الأعلام النسائية اللّاتي خططن سطورا من تاريخنا وحدّدن ملامح حاضرنّا.

وإنّ إعادة طبعه في نسخة فنيّة تليق به، لتجسّد حرص الكريديف على استكمال الواجب المهني والأمانة العلمية تجاه الناشئة والأجيال القادمة وعلى سعيه الدائم لتكريم نماذج نسائية بارزة في مختلف المجالات والحقبات التاريخية، فاعلة في إثراء السّجلات الثقافية لبلادنا، صانعة لأسس الاستثناء الحداثي التونسي ومجدّرة لحقوق التونسيات التي يعدّ تطورها الحالي، امتدادا شبه حتمي لتاريخ نسائي زاخر بالنجاحات.

1. حسب اليونسكو وموسوعة غينيس.

إنّ هدفنا يتجاوز استنساخ الطباعات السابقة، ليستحضر الجزئيات الدقيقة لعوالم الشهيرات، في رحلة تأخذ القراء لعالم المنمنمات والألوان التي تحاكي واقعهنّ والتي اتخذنا منها مطية للسفر في تاريخهن لا عبر الكلمة فحسب وإنما عبر الصورة أيضا.

لا يفوتني في خاتمة هذا التقديم أن أتوجه بخالص الشكر للسيد المنصف الزمرلي، حفيد كاتبنا حسن حسني عبد الوهاب، لثقتة الغالية بنا و تشريفنا بإعادة إصدار هذا المؤلف المتفرد.

أ. نجلاء العلاني
المديرة العامة للكريديف



إهداءُ الكتاب إلى أمّ الكرام نائلة عبد الوهّاب

بنيتي !

لم يرزقني الله من البنات - لحدّ الآن - بغيرك، لذا وددتُ أن أهديك عقداً تندمج في
سمطه جواهر حسان، ويواقيت ثمان - حور مقصورات في الخيام - يزري شعاعها بالكواكب،
والنجم الثاقب.

فطالعي بنيتي إشراق سناها، تجدي سراجاً وهّاجاً يضئ حياتك ويهديك صراطاً سوياً، فتتالين
مرضاة ربك، وابتهاج تربك .

والباري أسأل أن يلهمك اقتفاء أثر الفاضلات من التونسيات، فتكوني من الباقيات الصالحات،
أنّه تعالى مجيب الدعوات .

أبوك



تقديم الطبعة الثانية

مضى على إنشاء هذا الكتاب خمسة وأربعون عاماً، وكان الوضع السياسي والاجتماعي وقتئذ في البلاد التونسية على وضعه الحاضر، ولما استقرّ العزم على إعادة طبع هذا التأليف لنفاد نشرته الأولى، أوحى القلم بكلمة موجزة أشير فيها الى ما آلت إليه حالة المرأة من الرقي والانعتاق، في عصر التحرير والانطلاق.

فمن يئن الطالع لهذا القطر العزيز أن نال اليوم استقلاله الكامل الشامل، بفضل أبطال من أبنائه اندفعوا بصدق نية وعزيمة ثابتة وحمية، ومن بينهم وطنيات غيورات عملن مثلهم مخلصات، وقد انصوى الجميع صفّاً ملتتما تحت راية القائد الأسمى والرئيس الأعلى (الحبيب بورقيبة) الذي أفنى شبابه في ميادين الكفاح، وأحكم التدبير في توحيد الشعب للفوز بالنجاح، حتى بآن على يديه إشراق الصباح.

وكان من بواذر الإستقلال - لا سيما بعد إعلان الجمهورية - أن وجّه الزعيم الجليل عزمه الصارم، تعضده الأمة التونسية قاطبة، للرفع من درجة المرأة إلى مستوى الرجل في كل ميدان، فسنّ قانوناً جديداً يجعلها سواسية في كل الحقوق، وخوّل للمرأة حقّ التصويت والمشاركة في الانتخابات، وانشغالها في سائر مناصب الحكومة وعموم المؤسسات.

والأهم من ذلك عنايته الأكيدة بالبنات - إمراة الغد إذ حملها على الدراسة في مختلف مناهجها، حتّى أصبح عدد الفتيات المتعلّمات لا يقلّ عن الذكور إلاّ بنسبة ضئيلة، وسوف تتوازى النسب حينما يعمّ التعليم الإجباري كل المواطنين.

ومن يباكر الشوارع صباحاً يندهش من تضخّم سيل البنات المقبلات على المدارس، مثقلات بالكتب والدفاتر، وقد نزعن الأزياء القديمة، وعوّضنها بما يساعد على النشاط، وبذلك يدرك عابر الطريق مدى تسابقهن إلى موارد التثقيف، وازدحامهنّ على مناهل العرفان. وكان من



نتيجة هذه الحركة الظاهرة للعيان، أن سقط الحجاب، وزال حاجز التمتع بالحرية البشرية، مثلما يُشاهد في الأقطار الراقية بالسواء.

وإنّا لنرجو - مخلصين - أن تتواصل هذه النهضة المباركة إلى أن تبلغ منها المرأة المستوى المرموق، اللائق بمركزها في الهيئة الاجتماعية، فتكون عضواً صالحاً، دائب العمل على الارتقاء المنشود، والمرمى المقصود.

وإنّا لنتمنى لها الحفاظ على الأخلاق السديدة التي هي قوام الشيم السليمة، والنحائز الكريمة، الموروثة خلفاً عن سلف منذ أحقاب مضت، كما سيرى القارئ الفاضل شرحه وبيانه في أخبار «شهرات التونسيات».

والأمل وطيد أن يضاف قريباً إلى تراجم السابقات «نابغات معاصرات» يُثبتن ما لتونس الناهضة من السُّمعة الحميدة، والشهرة البعيدة، والسيرة المثلى فيؤيدن بذلك المكانة المكيّنة لوطنهنّ بين الأمم المتيقظة في مشارق الأرض ومغاربها، إن شاتعالى،

ومنه سبحانه يُستمدّ العون والتوفيق.

عن قرطاجنة سلام بو -

ديسمبر 1965



بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

«والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه»
(قرآن كريم)

تبارك الذي كرم تونس بين البلاد، وغمرها بالمحاسن الواضحة الاشهاد، وفضلها على الأمصار، بموقع مختار، رقّ به هواؤها، وعذب ماؤها، وصفا أديمها، وزكا شميمها، فنجومها زاهية زاهرة، وأشعة شمسها نيرة باهرة، فجرها شقيق، وأصيلها عقيق، رزقها موفور، وعيشها ميسور، ونزيلها بأنواع الخيرات مغمور :

ويزيدها مَرّ الليالي جدّة وتقادم الأيام حسن شباب

فسبحان من خص هذا القطر المحبوب - على صغره - بكرم التربة ومحاسن الاربة، وميزه بالخير العميم، والنيل الجسيم. وجلّ من أثمر أفنائه، وهدل دوحه وأغصانه، بأبناء نبغاء - رجالا ونساء - زينوا موطنهم بخصال حميدة، وفعال سديدة، وحكم رشيدة، خلت ذكراهم وعطرت شذاهم، على مدى العصور وتوالي الدهور :

وإذا عظم البلاد بنوها أنزلتهم منازل الإجلال

في خلال العام الماضي جرى بيني وبين أحد الأصدقاء الأعزاء حديث في شأن التأليف المسمى (الدر المنثور، في طبقات ربات الخدور) الذي دبجته براعة الكاتبة الشهيرة زينب خاتم فواز في التعريف بالمتقدمات من النساء في كل من قطر ومصر. وعلى ذكر هذا التصنيف تحركت بواعث الشجن في نفس ذلك الصديق فأظهر أسفا شديدا على خلو تاريخ هذا القطر من أخبار نابغات تونسيات يؤلف في ذكرهن مثل ذلك الكتاب حتى نفاخر بعبقريتهن الشرقيين، ونباهي بمداركهن الغربيين، فبادرت إلى مسامرة ما علق بنفس صديقي وكشفت له القناع عما حضرني من تراجم العقائل، والنابغات الأصائل، اللائي عطن أديم هذا القطر بشذى فضلهن، وسارت

الركبان بحديث شهرتهن، وهو من أقطع الأدلة على رسوخ الحضارة الإسلامية وتأصلها في هذا الإقليم، وعراقة أهله في المدينة والتعليم، فكنت كلما أذكر له اسما، وأوضح له رسما، إلا ويزداد جذلا وسرورا، وفرحا وحبورا، وقد أدى به فرط الدهش والإعجاب بما كانت عليه المرأة التونسية في غابرها من العلم الجم، والكمال الأتم، أن اقترح علي تأليف عجالة ألمع فيها إلى ذكرهنّ تكون مرجعا لطلاب الفوائد ونموذجا للراغبين في اقتناء الشوارد، فاعتذرت له بكثرة الشواغل وعدم خلو البال، وفوق ذلك فأنتى لي بيراع زينب فواز في المتأخرين، أو ببلاغة أبي عبيدة مدون أخبار النساء في المتقدمين، فلم يزد هذا العذر إلا اشتدادا في الرغبة وإلحاحا في الطلب حرصا منه - جازاه الله خيرا - على ترصيع إكليل تاريخ هذه البلاد المأنوسة بتلك الدراري الكريمة، والجواهر اليتيمة، فلم أجد بدا من القبول، وسألت الله أن يعينني على جمعه وهو نعم المسؤول.

فانتهزت لتحبيره وتحريره سويغات الفراغ وأنا مقيم على هذا الشاطئ أيام القيظ، وكانت خير معين لي على إنجازها، فواليت العمل في إبرازه، ولي المعذرة إذا لم يكن موفيا بالمرام، فقد توخيت غرضا لم تجل فيه أقلام التونسيين من قبل حتى يكون لي ذلك مسندا أرجع إليه، أو مصدر اعتمد عليه، وإنما هي نبذ متفرقة اقتطفتها من سياق الكلام فاجتمعت، واتف مبعثرة بين المصنفات التقطتها فائتلفت.

وغاية المأمول أن تحظى هذه الوريقات بالقبول، لدى شبيبتنا الحازمة خصوصا المصونات عقيلات هذا الوطن، وأن تقع لدى جميعهم الموقع الحسن، وحسبي الله كافيا ومعينا.

تحريرا بشاطئ خير الدين
سلخ رمضان المبارك 1336
(يونية 1917)



الدُّور العَرَبِي



امتزاج العناصر

تسنى للأمة العربية أن تفتح ممالك العالم القديم بتأييد من الحق تعالى، فانتصب الفاتحون بتلك الأقاليم واتخذوها وطناً لهم ولأعقابهم من بعدهم، فكان الغزاة يفدون على البلاد شرقاً وغرباً يتخيرون مواقع لإقامتهم - كالقيروان وتونس مثلاً - ولما يستقر بهم المقام - بعد جلب عيالهم وأقاربهم وعشيرتهم - يخططون الدور، فالمساجد، فالقرى فالمدن. وهكذا جرت عادتهم في الفتح والعمران (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً).

وقد كانت لمجاهدي العرب رغبة في نكاح البنات من أهالي البلاد المفتوحة سواء على وجه التسري من السبي والجواري، أو بمصاهرة البيوتات العريقة ترغيباً لهم في اتباع الشريعة الإسلامية، وذلك لما للمصاهرة من التأثير العظيم في ربط علائق الألفة وأواصر الصداقة وحسم الخلافات وإبادة الضغائن والأحقاد.

وبهذه السياسة المثلى تمكن العرب في زمن قصير من أدغام الأمة البربرية - وغيرها من الأمم - في العائلة الإسلامية الكبرى، فلم يمحُ قرن حتى تشخصت النهضة العربية في أحسن مظاهرها حيث أصبح سكان افريقية مبتهجين بانتمائهم إلى قحطان وعدنان، آخذين من العرب مبدأهم الديني ولغتهم وعوائدهم، ومن يطالع التاريخ التونسي يرى في ذلك عجباً.

على أن امتزاج العنصر العربي بمن عاداه لم يكن قصد الفاتحين منه مجرد الاقتصار على متعة الزواج بنساء بربريات، بل كانت لهم مطامح أسمى من ذلك، وحسبنا دليلاً ما أورده أئمة التاريخ.

نقل أبو الفرج الإصفهاني في «كتاب النساء» من تأليفه¹ قال : «كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله على افريقية (هو عبيد الله بن الحبحاب) : «أما بعد فإن أمير المؤمنين لما رأى ما

1. من ك «تحفة العروس» لأبي الله عبد محمد التيجاني التونسي طبع مصر سنة 1301 ص 68.

كان يبعث به موسى بن نصير إلى عبد الملك بن مروان رحمه الله أراد مثله منك، وعندك من الجواري البربريات المالثات الأعين، الأخذات بالقلوب، ما هو معوز لنا بالشام وما والاها، فتلطّف في الانتقاء وتوخّ أنيق الجمال ومع ذلك فاقصد رشدة المولد وطهارة المنشأ، فإنهن يتخذن أمّهات أولاد، والسلام» هذا ما كان يكتب الخلفاء إلى عمّالهم بإفريقية على عهد بني أمية. أما في دولة بني العباس فقد جاء في كتاب «المسالك والممالك» ما نصّه²:

«وأما ما يجهز من المغرب إلى المشرق فالمولّدات الحسان اللاتي استولدهن بنو العباس وغيرهم وولدن غير سلطان عظيم (كسلاّمة البربرية) أمّ أبي جعفر عبد الله المنصور، و(قَتُول) أمّ أبي منصور محمد القاهر بن المعتضد وغير من ذكرت من ملوك المشرق ومراثة».

ولا يخفى ما في هذه السياسة الصائبة من الحكمة البالغة في مصانعة الأمم المغلوبة ومراعاة ميولها.

ولم يكن ذلك الزواج قاصراً على امتلاك الفاتحين لعصمة بنات المغلوبين بل الأمر بالعكس فإن الشريعة الإسلامية كما سوغت للعربي نكاح البربرية جوزت للبربري نكاح العربية سواء بسواء، لأنّ الإتحاد في الدين جعلهم سواسية في كافة الحقوق. لذلك صار تداول المصاهرة في نمو وازدياد. فطالما تزوّج سُراة البربر وأعيانهم بنات العرب وأشرفهم لا سيما بمناسبة ترحالهم إلى المشرق للحج أو التجارة أو طلب العلم.

حكى أبو الفرج الأصبهاني قال³: «حدثني اسحاق عن المدائني أنّ حبّابة⁴، كانت تسمى (العالية) وكانت لرجل من الموالي بالمدينة فقدم يزيد بن عبد الملك في خلافة أخيه سليمان واشترى العالية بألف دينار، فبلغ ذلك سليمان فقال لا حرجن عليه فبلغ يزيد قول سليمان

2. المسالك والممالك، لابن حوقل البغدادي الرحالة الشهير الذي زار شمال إفريقيا في القرن الرابع للهجرة وتجول في أنحاء - طبع ليدن سنة 1872 ص 29.

3. كتاب الأغاني ج 13 صفحة 149 طبع مصر سنة 1323.

4. هي حبّابة المكيّة جارية الخليفة يزيد بن عبد الملك المشهورة التي مات حباً من أجل موتها.

فاستقال مولى حبّابة. ثم اشتراها بعد ذلك رجل من أهل افريقية. فلما ولي يزيد الخلافة اشترتها (سعدة) إمرأته وعلمت أنّه لا بدّ طالبها ومشتريها الخ...».

وروى أبو الفرج أيضا⁵ قال : حدثنا أبو عوف عبد الرحمن بن مقرن فقال : بعثني المنصور (وهو أبو جعفر الخليفة العباسي) لأبتاع له جارية من المدينة وقال لي : أعمل برأي ابن نفيس، فكنت أفعل ذلك وأغشى ابنه وكانت له جارية مُغنية قد كلف بها فتى من آل عثمان بن عفان فكان يبيع عقدة عقدة من ماله وينفق ثمنها عليها، وابتلى برجل من أهل افريقية ومعه ابن له فغشى ابن الافريقي بيت ابن نفيس فجعل يكسو الجارية وأهلها ويبرّهم حتى حظي عندهم وغلب عليهم وتناقلوا العثماني، فقضي أن اجتمعنا عشية عندها وحضر ابن الافريقي والعثماني فنزع ابن الافريقي خفه فتناثر المسك منه. وأراد أن يكيد به فجلسنا ساعة فقال لها ابن الافريقي غني :

بيننا حبال ذات عقد لبشنة أتيح لها بغض الغواة فحلها⁶

يعرض بالعثماني. فقال لها العثماني لا حاجة لنا في هذا ولكن غني :

من يرع نجدا يلفني قد رعيت بهجنيته الأولى ويورد على ورد

قال فنكس ابن الافريقي رأسه وخرج العثماني وخمد أهل البيت.

فأنت ترى من هاتين الحكايتين كيف كان أبناء البربر الإفريقيين ينافسون أعيان المدينة في امتلاك جارية، ويزاحمون في شراء الخطايا والسرايا المشهورات من المشرق فيجلبونها إلى بلادهم.

5. الأغاني 7 ص 87 طبعة (الساسى).

6. البيت الجميل العذري من مقطوع في صاحبه بثينة.

ولم يبطء الزمان أن أصبح أبناء هذا الخليط الجديد من العنصر البربري يفخرون بحسبان أنفسهم من ذوي الأحساب العريقة في البيوتات العربية ويستنكفون أن تمتّ أحسابهم بالجنس البربري.

ولله في خلقه شؤون.

إكرام ليلة

كانت سياسة المؤاخاة والمواساة الشعار الوحيد الذي رسخ به قدم الفاتحين في هذه الديار: فمما يجدر بنا ذكره للدلالة على حسن سلوكهم هو أن عبد الملك بن مروان كان وفد أيام شبابه على إفريقية مع الجيش العربي الغازي - في حدود سنة 45 - فتعين لفتح صطفورة (ناحية من ولاية بنزرت الآن) وبينما هو سائر ليلاً إذ تخلف عن كوكبة الفرسان المصاحبة له ولم يهتد بعد إلى الطريق فالتجأ على كوخ وجد به امرأة بربرية نزل عليها فأكرمت نزله وقامت له بواجب الضيافة خصوصاً وقد كان ذلك في فصل الشتاء، فلما بزغت الغزالة زودته تلك العجوز بما حضرها ودلته على الطريق إلى أن بلغ إلى رفاقه. ثم مضى زمان وصعد عبد الملك عرض الخلافة الأموية بدمشق ولم ينس بعد ما لاقاه من كرم تلك البربرية. فكاتب عامله على إفريقية يأمره بالبحث عنها ولما وجدها بقيد الحياة أمره بإجراء نفقة وافرة عليها وبإعفاء عقبها من بعدها من الخراج لإكرامها رجلاً غريباً تجهل نسبه ومحتده⁷.

فبمثل هذا السلوك الحسن تمّ للسياسة العربية امتلاك قلوب الشعوب بعد أن ملكت منهم الرقاب - والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

7. كتاب «المسالك والممالك» للبكري. طبع باريس سنة 1911.



الحفيدة الخطّابية

أبهى وأسنى جوهرة يكلل بها تاج تراجم التونسيّات اسم الفتية الطاهرة حفيدة الخليفة العادل عمر الفاروق رضي الله عنه.

(هي زينب) بنت عبد الله بن عمر أول من بايع بالرضوان وأشهر رواة الحديث. فجدّها عمر بن الخطّاب الخليفة الثاني وعمتها حفصة أمّ المؤمنين.

وقد اخترنا أن نصدر تراجم التونسيّات بذكر هذه الفتية المباركة لأنها أول قريشية اشتمل أديم البلاد التونسية على جسدها الشريف.

غزا عبد الله بن عمر أفريقية مرتين الأولى سنة 27 مع عبد الله بن أبي سرح وتعرّف هذه الغزوة بوقعة سببلة وبغزوة (العبادلة السبعة) والمرة الثانية مع معاوية ابن حُديج في النصف الأول من قرن الهجرة. وفي أثناء هذه الغزوة عندما كان الجيش الفاتح بقمونية⁸. ماتت زينب المترجم لها ودفنت بموضع في القيروان يعرف اليوم بمقبرة (الجناح الأخضر) وكان يسمى في القديم (بمقبرة قريش) انتساباً لتلك الفتاة القريشية⁹. وما زال ضريحها يشاهد بهذه المقبرة حتى الآن وهو محل الإجلال والاحترام من زوار هذا المدفن العتيق :

فسقاك الاله وابل غيث يا ضريحها يضم مجدا أثيلا !

8. مكان قريب من القيروان دفن فيه كثير من أعيان الفاتحين منهم الصحابي الكبير أو زمعة البلوي رضي الله عنه.

9. معالم الإيمان ج 1 ص 72- ورحلة العبدري (خط).



صنديدة بربرية : الكاهنة

على إثر امتلاك العرب لإفريقية ظهر بين الشعوب البربرية زعماء ادعوا الرئاسة وشاغبوا في ملكهم الجديد وقد انضم إلى هؤلاء الدعاة بقايا الروم الإفريقيين. فأول من نازع سلطة العرب كان الداعي (كسيلة) الذي أظهر الإسلام في بادئ أمره ثم نكث عهده وكان سبباً في استشهاد عقبة وأصحابه الطيبين رضوان الله عنهم. ثم عاد العرب في قوة واستأنفوا الفتح من جديد.

ولم تلبث هذه الحال إلا قليلاً حتى قام برابرة المغرب الأوسط وإفريقية في عدة عظيمة تحت قيادة امرأة كانت متزوجة بأحد الرؤساء، فلما مات بعلمها تسلطت على طوائف من الأهليين لما أوتيت من الشجاعة والدهاء والتدبير، ولا سيما التظاهر بمعرفة المغيبات والاطلاع على أسرار النفوس. ولهذا السبب لقبها العرب (بالكاهنة البربرية).

وهي : دها بنت تابنت بن تيفان. نشأت في قبيلة (جراوة) من زناتة المخيمة بجبال أوراس. وكان لها ولدان ورثا الرئاسة عن سلفهما وتربيا في حجرها فاستبدت بهما على القوم ونظمت جنداً أعدته لمقاومة العرب - وذلك في حدود 75 من الهجرة.

فلما غزا حسان بن النعمان الغساني إفريقية من قبل عبد الملك بن مروان واستولى على قرطاجنة - ملجأ الروم - عزم على تبديد أمر البربر، فخرج إلى الكاهنة بجيوشه والتقى بها عند نهر مسكيانة على مرحلة من بغاية ومجانة، وبعد بلاء عظيم انهزم حسان وقتل من العرب خلق كثير، وأسرت الكاهنة جماعة من سراتهم منهم خالد بن يزيد القيسي - وقيل العبسي - وكان شجاعاً مذكوراً. ففارق حسان إفريقية حتى خرج من حد قابس وترك الأمر للبربر. وكتب إلى أمير المؤمنين بخبر الكاهنة، فأجابه عبد الملك : «أنه بلغني أمرك وما لقيت ولقي المسلمون، فحيث ما وجدك كتابي هذا أقم ولا تبرح حتى يأتيك أمري، والسلام» فورد عليه الكتاب وهو نازل بالموضع المعروف اليوم (بقصور حسان) وأقام العرب بطرابلس خمسة سنوات ينتظرون المدد. وفي تلك المدة ملكت الكاهنة إفريقية كلها. وكانت حين أسرت أصحاب حسان أطلقهم جميعاً ما عدا خالد بن يزيد فإنها تبنته بالرضاع - وكانت عادة جارية عند العرب في جاليتهم وعند البربر أيضاً - وأخذت عهداً على أسيرها أن يكون أماً صادقاً لابنيها.





ثم إن حسان بعث سرًا إلى خالد وهو في أسره يستخبره عن الكاهنة وقوتها واستعدادها، فكتب خالد إليه الجواب ودسّه في رغيف أنضجه لذلك، ثم دفعه إلى الرسول ليخفي الكتاب وليظن من رأى الرغيف أنه زاد الرجل. فلم يغب الرسول حتّى خرجت الكاهنة ناشرة شعرها وهي تقول : «يَالْقَوْمِي، ذهب ملككم، ودنا هلاككم فيما يأكل الناس» وكررت ذلك مرّات، فلما علمت الكاهنة بما عزم عليه حسان جمعت رجالها من بربر وروم وأفارقة وقالت لهم : «يا قوم، إن العرب يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ونحن إنّما نريد المزارع والمرعى. ولا أرى لكم نجاةً إلّا بتدمير البلاد وطمس معالمها».

فاندفع البربر لهذه الإشارة يقطعون الأشجار، ويخربون الديار، ويدمرون القرى والمداشر حتّى أصبح عمرانها أثرًا بعد عين. وكانت افريقية فيما قيل ظلا واحدا ممتدا من طرابلس إلى بونة وعمارة متصلة فأخرج ذلك كله طمعا في تشييط همة العرب الفاتحين، وهيهات أن يصدّهم ذلك لأنّ غايتهم كانت أعلى ومقصدهم أسنى !

ثم إن حسانًا جهز عساكره وتقدّم الى ملاقة البربر، فخرجت الكاهنة ناشرة شعورها وهي تقول : «يا بني، انظروا ماذا ترون في السماء ؟»

قالوا - نرى شيئا من السحاب الأحمر

فقالت لهم - لا وحقّ الآهي، إنّما هو رهبج¹⁰ خيل العرب أقبلت إليكم ! - ثمّ قالت لخالد بن يزيد : - إنّما اتخذتك ولدًا لمثل هذا اليوم، إنّما أنا مقتولة.

قال لها خالد : «فإذا كان الأمر كذلك فارحلي وخلي البلاد ؟»

قالت : - كيف أفرّ وأنا ملكة ؟ والملوك لا تفرّ من الموت، فأقلد قومي عارًا الى آخر الدهر !»

10. الرهبج هو السحاب الذي يكون بلا ماء.

وتقدم حسان على أعنة الخيل والتقى الجمعان بالفحص (الجم) وقد اتخذت الكاهنة القصر الرومان هناك حصناً لرجالها. فتكافح الفريقان وتجالد الجيشان، حتى ظنوا أنه الفناء فأنهزمت الكاهنة وقُتلت عند بئر سماها الناس (بئر الكاهنة)¹¹.

ولقد أحسن العرب معاملة من كانوا مع الكاهنة وأظهروا على عاداتهم شهامة الكرام، لأن حسان لما امتلك البلاد آمن البربر واشترط عليهم أن يعطوه اثني عشر ألف فارس برسم الجهاد، فأجابوه لذلك وأسلموا على يديه، فعقد لولدي الكاهنة كل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر، وأخرجهم مع العرب إلى النواحي يفتحون إفريقية والمغرب ويقاسمون الفاتحين الفياء والأراضي والشرف. وبذلك حسنت طاعتهم وخضعوا للدين القويم وصاروا له أنصاراً وأعواناً (وتلك الأيام ندولها بين الناس).

أمّا الكاهنة فإنها ماتت - كما ترى - مorte الأحرار بعد أن خلدت في تاريخ هذا القطر ذكر الأبطال الذي لا ينقضي بمرور الدهور والأجيال، فما أجمل ما انتهى به أمر هذه الصنيعة التونسية، وما أبهى وأبهر سلوك العرب مع الأمم الخاضعة لسلطان الديانة الإسلامية.

احترام حقوق المرأة

كم دوى في أذاننا رنين الانتقاد على الشريعة الإسلامية السمحاء بأنها شريعة تسلب المرأة حقوقها وتجعلها مستبضعة بين يدي الرجل أو مستودعا لكامل سلطته واستبداده المطلق دون أن تخولها بآرائه أدنى حق. وقد أخطأ هؤلاء الناقدون خطأ فادحاً لا يغتفره لهم العلم والتاريخ إذ لا حامل لهم عليه إلا أحد أمرين: أما التعصب الأعمى أو الجهل الممقوت.

ولو كان غرضهم إصابة الحق ما أغمضوا أبصارهم عن الآيات البينات المشحون بها الكتاب الحكيم النازلة في حقهن. فقد قال تعالى: «فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان» وقال: «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» وقال: «وعاشروهن بالمعروف» وغير ذلك من الآيات الكريمة التي يضيّق دون استيعابها نطاق هذه العجالة. من أراد أن يستكمل فليطالع دواوين الحديث والفقه، وفي ذلك بلاغ.

11. معالم الإيمان ج 1 ص 52 وما بعده - وتاريخ ابن خلدون ج 1 ص 135 ط الجزائر.

ونحن نكتفي عن ذلك كله بذكر القضية الآتية التي قصّها علينا التاريخ التونسي، ومنها تعلم ما للمرأة من الحرمة والحق في الإسلام، ولا دليل أثبت من القضاء والأحكام. فقد ذكر ابن الدباغ¹² أنّ الأمير عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة ابن نافع ناط قضاء القيروان - سنة 132- بجميل بن كريب المعافري. فكان هذا القاضي عادلاً منصفاً لا تأخذه في أحكامه لومة لائم، فبينما هو جالس ذات يوم للخصوم بجامع القيروان إذ حضر لديه تابع لامرأة الأمير عبد الرحمن المتقدم وعرض عليه نيابة على مولاته قضية في زواجها وهي أنّها كانت اشترطت على الأمير عند البناء بها أنّه مهما تسرّى عليها بغيرها كان أمرها بيدها وبعد أن أثبت التابع وكالته عند القاضي أخذ استدعاءً للأمير فامثل عبد الرحمن لذلك وشخص بين يدي القاضي مع التابع كسائر الخصوم. ولما سأله على القضية أقر بالتسرّي واعترف بالشرط الواقع بينه وبين زوجته. فأشهد عليه القاضي عندئذ من كان حاضراً من الشهود، ثم التفت للتابع وأبلغه أن أمر الأميرة بيدها إن شاءت أقامت وأن شاءت طلّقت نفسها. فرفع الأمير عبد الرحمن يده إلى السماء وقال : «الحمد لله الذي أراني قاضياً يحكم في بالحق!».

غير أنّ الشيخ ابن الدباغ الناقل للحكاية لم يعلمنا فيما رواه إذا كانت زوجة الأمير خيرت البقاء أو الطلاق¹³.

ومهما يكن فهذه الحكاية البسيطة الواردة عفواً في معرض ترجمة أبي كريب المعافري من البراهين الدالة على مراعاة الشريعة الإسلامية لحقوق المرأة وتحويلها إيّاها حرية معقولة مؤسسة على احترام الأخلاق.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هموا ذهب أخلاقهم ذهبوا

12. معالم الإيمان ج 1 ص 127.

13. أقول لم تزل العادة جارية من ذلك العهد إلى الآن بالقيروان يتبرع الزوج لزوجته عند انعقاد النكاح في كونه راضياً لها بعدم الزوج عليها بامرأة ثانية. وقد ينص عادة في نفس رسم الصداق بأن الزوجة لها الحق تطليق نفسها متى تزوج عليها بغيرها، وهو ما يعرف في القطر التونسي بالطريقة القيروانية في الزواج. ولذا قلما وجد في القيروان من تعددت زوجاته.

المصاهرات بين إفريقية والعراق

زحرت القيروان - في مستهل القرن الثاني للهجرة - بالسكان، ولم تكن رقعتها تضم أهلها الأصلاء وحدهم، وإنما تفسح صدرها للواردین عليها من مختلف الأمصار الإسلامية، فكانت بيئتها الاجتماعية تحتوي على عناصر أشتات من عرب وأفارقة وبربر وروم، وقد أشار إلى ذلك الرحالة (اليقوبي) حيث يقول¹⁴ :

«وفي مدينة (القيروان) أخلط من قريش ومن سائر بطون العرب، ومن مضر وربيعة وقحطان، وبها أصناف من عجم البلاد البربر والروم وأشباه ذلك...».

ومن بين قطان القيروان : الاجناد وأبناء الاجناد الوافدون من شمال جزيرة العرب، ومن اليمن والشام ومصر، وكذلك الولاة والأعوان الذين تبعث بهم الخلافة الأموية لكي يسند إليهم الولاة مرافق إدارة البلاد، وكذلك أهل التجارة الذين يزاولون عرض بضائعهم المجلوبة من أطراف المشرق والمغرب.

وفي من ضمت القيروان طائفة أخرى غير هؤلاء وهؤلاء، طائفة العلية والسراة من أهل البيوتات العربية العريقة الأنساب، ساقتهم مطامحهم السياسية إلى إفريقية، لكي يكونوا بمنأى عن مقر الخلافة، وبمنجاة من سلطان بني أمية، أو كانت هجرتهم لغير ذلك السبب من الدواعي والمرغبات، فوجدت الجالية العربية الفتية في مقدمتهم تعزيزاً لها وتقوية على الأيام...

فمن أعيان الوافدين : (منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري) من ذرية (ذي رعين) أحد ملوك اليمن قبل الإسلام.

14. «كتاب البلدان» لليقوبي - وقد زار المغرب في حدود سنة 285هـ - طبع بغداد ص 106.

طراً منصور على القيروان نحو سنة 110 هـ. واتخذها له وطناً، وابتنى بها داراً حسنة في الحي المنسوب إلى (بني نافد) غير بعيد عن المسجد الجامع، وقد صاهره البشير بن خالد صاحب الشرطة بإفريقية إذ تزوج أخته، فزاد ذلك من مكانته في الجالية العربية.

قال ابن الأبار¹⁵ - ناقلاً عن ابن الوكيل القيرواني - : «كان منصور شريفاً في قومه، معروف المكانة فيهم، مذكوراً بالبلاغة والشعر وكرم الأخلاق».

وبعد حين من مقدمه، ورد عليه شاب قرشي من البصرة، يعرف آل بيته في المشرق، وهو : (أبو جعفر عبد الله العباسي) فأكرم منصور مثواه وانزله على الرحب والسعة.

ويجمل بنا هنا أن نسوق نبذة عن خبر أبي جعفر وما كان له من الصلة الوثيقة بإفريقية التونسية قبل أن يلي الخلافة وبعد أن وليها، وهو : عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، وأمه (سلامة) بنت بشير، جارية بربرية من قبيلة نفزة التونسية، تزوجها أبوه محمد فولدت له أبا جعفر سنة خمس وتسعين للهجرة بمدينة البصرة، فنشأ بها، وقرأ على أعلامها، ومن رفقة في مدارس العلم زمن الصغر : عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي¹⁶.

حكى عبد الرحمن عن نفسه، قال :

«كنت أطلب العلم مع أبي جعفر المنصور، قبل أن يلي الخلافة، فدخلني يوماً منزله في (الكوفة) : فقدّم طعاماً ومُرَيقة من حبوب ليس فيها لحم، ثم قدّم زبيباً، وقال : يا جارية! عندك حلوى ؟ قالت لا، قال : ولا تمر ؟ قالت : ولا تمر». فاستلقى أبو جعفر ثم قرأ هذه الآية : (عسى ربكم أن يهلك عدوكم، ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون).

15. كتاب الحلة السراء : 351

16. راجع ترجمته في «خلاصة» تاريخ تونس ص 59

ولما كبر أبو جعفر وترعرع، اقتفى خطا أخويه الكبيرين إبراهيم المعروف بالإمام، وأبي العباس الذي اشتهر فيما بعد بالسفاح، فجرى مجراهما في دعوى استحقاق الخلافة، فأذكت الدولة الأموية العيون عليه، وأوعزت إلى العمال والأعوان أن يتبعوه، وأن يتعرفوا ما يكون منه، وأن يقبضوا عليه إذا لزم الأمر، فكان هو وأهل بيته يخفون ما استطاعوا، ويسرون دعوتهم بكل سبيل، ويلوذ منهم لائذون بالبقاع القاصية، مثل خراسان ببلاد فارس، وصنعاء باليمن.

أروى القيروانية

وما عثم أبو جعفر أن توخى إفريقية لما بينة وبينها من رحم واشجة، فإن ابن عمه حفيد عبيد الله بن العباس كان قد طرأ على القيروان وتزوج فتاة تسمى «أروى» وتنكى «أم موسى»، وهي ابنة منصور بن يزيد الحميري، فأولدها بنتا، ومات نحو سنة عشرين ومائة للهجرة، فبقيت «أروى» في بيت أبيها، وتقلبت بها الأيام، حتى كان مقدم أبي جعفر يستلحق ابنة ابن عمه في ظاهر الأمر، على حين أن حقيقة الغرض من مقدمه هي التماسه سبيل النجاء من طلب بني أمية له. حل أبو جعفر ضيفا عزيزا على منصور بن يزيد الحميري، وفي أثناء مقامه عنده، شهد من وسامة «أروى» ما بهر بصره وخلق لبه، فخطبها إلى أبيها وتزوجها، وتعلق بها أكبر التعلق طول حياته، وقد اشترط لها أبوها في عقد زواجها ألا يتزوج أبو جعفر غيرها ولا يتخذ السراري معها، فإن تسرى عليها كان طلاقها بيدها كما جرت بذلك عادة أهل القيروان من عهد قديم، حتى سُميت تلك الطريقة بالصدّاق القيرواني.

مكث أبو جعفر في كنف منصور بن يزيد الحميري والد زوجته (أروى) حتى كتب الخليفة هشام بن عبد الملك إلى عامله على إفريقية يطلب منه القبض على أبي جعفر، فلما أحسّ الخطر اضطر أن يستخفى في بيت ختنة بشير بن خالد، وهو قصر يقوم في وسط ضيعة خارج القيروان على طريق سوسة، وربما كان في موضع الخرازية الآن.

وبعد حين أزمع أبو جعفر عودة إلى المشرق، ليلتحق بإخوته وآل بيته، وكانت أنباء دعوتهم تتناهى إليه في القيروان، فانحدر بزوجه أروى مختفيا إلى الكوفة، وظلّ يتردد على منازل

الأشباع من الهاشميين في سرّ، حتى ظفرت الدعوة العباسية بمناصرة أبي مسلك الخراساني، وسقطت دولة بني أميّة، وآلت الخلافة إلى عبد الله السفاح سنة 132 هـ، وكان الأخ الأكبر لأبي جعفر، فلما مات استندت إليه الخلافة سنة 136 هـ، وفي بادئة أمره أنشأ مدينة بغداد التي سميت أول ما سميت : مدينة المنصور، وابتنى لنفسه قصرًا سماه «قصر الخلد» وأسكن فيه زوجته وأروى وبنيه وذويه.

وقد وقى المنصور لزوجته «أم موسى» ما كان عاهداها عليه في عقد الزواج، فلم يتخذ له زوجاً سواها، ولم تكن له سراري معها طول حياتها، وقد ولد له منها جعفر أكبر أولاده، ومات في حياة أبيه، وهو والد (الزبيدة) التي تزوجها هارون الرشيد فيما بعد، وابن ثان وهو (محمد المهدي) الذي صارت إليه الخلافة.

ولم تزل (أروى) - أم موسى - في المحل الأرفع من قلب زوجها ومن إجلاله وتكريمه، يرى أولادها، ويحتفي بأهل بيتها، حتى توفيت سنة 146 هـ بعد عشر سنين من ولايته إمارة المؤمنين.

حزن المنصور على زوجته الحميرية الإفريقية حزناً أليماً، إذ كان يحمد لها ما تمتاز به من جليل الخصال، ويذكر لها مشاركتها إياه في البأساء والعماء، ويفاخر بأنها سلالة ملوك اليمّ من حمير، ذروة مجد العرب الاثيل.

ومن آثار (أروى) التي خلدت لها ذكراً دائماً وحسنة باقية على الدهر ما رواه الجاحظ¹⁷ نقلاً عن معاصره علي بن محمد بن سليمان قال : أبي يقول : «كان المنصور اشترط (لأم موسى الحميرية) أن لا يتزوج عليها ولا يتسرّى، وكتبت عليه بذلك كتاباً أكدته واشهدت عليه بذلك، فبقي المنصور على عهده حتى ماتت ببغداد، فأتته وفاتها وهو بحلوان... وكان المنصور أقطع أم موسى الضيعة المسماة «بالرحمة» فأوقفها قبل موتها على المولدات الإناث دون الذكور، فهي وقف عليهن إلى هذا الوقت» - حدود سنة 250 هـ.

17. راجع كتاب «المحاسن والأضداد» للجاحظ. مصر 1441 ص 117.



شهرات التونسيات





وقصدت أم موسى بالمولودات الأميرات من بني العباس اللواتي لم يتزوجن أو اللواتي مات عليهن بعولتهن وتركهن أرامل، وفي غالب الوقت لم يكن للخلفاء المتولين عناية كافية بشؤونهن والقيام بنفقاتهن بالرغم من منزلتهن الرفيعة، فيجدن حينئذ في ريع ما أوقفته جدتهن المحسنة ما يصون عفافهن، ويحفظ كرامتهن، ويغنيهن عن الالتجاء إلى الأمراء وغيرهم، والالحاف بالسؤال فيما يعوزهن من الضروريات.

وبهذا العمل الإنساني كانت (أروى) من أول نساء الإسلام تفكيرًا في حالة العوانس والأرامل اللاتي عضن الدهر بنابه، وفي تخفيف وطأة النوائب عليهن ونيل الأحداث منهن، رحمها الله تعالى.

وقد عرفت أم موسى فيما بعد بأنها «أم الخلائف»، إذ أن خلفاء بني العباس - من بعد المنصور - كانوا من ذريتها الماجدة، نازعين إلى تلك الأعراق البالغة من النبالة أقصى المبالغ.

ومن قول الشاعر الكبير سالم بن عمرو المعروف بالخاسر في مدح الخليفة المهدي¹⁸.

أكرم بقوم أمين الله والده وأمه أم موسى بنت منصور

ومن قول الشاعر المعروف أبي نواس في الخليفة محمد الأمين بن الرشيد وزبيدة :

وما مثل منصوريك هاشم ومنصور قحطان إذا عدّ مفخر

فمن ذا الذي يرمي بسهميك في الوري وعبد مناف والداك وحمير

ومن قول أبي نواس أيضا¹⁹ :

فجداك هذا خير قحطان واحدا وهذا ما عد خير نزار

18. مروج الذهب للمسعودي ج 3.

19. الحلة السيرة ص 323.

يعني بالقحطاني منصور الحميري، وبالنزاري أبا جعفر المنصور. ونقتصر على هذه الأبيات في الإشارة إلى رفعة نسب منصور الحميري واتصاله ببني العباس، والمأثور من أمثالها كثير لا يتسع لإيراده المقام.

عاش أبو جعفر المنصور بعد وفاة زوجته، في عزّ وصوله، حتى توفي سنة 158هـ، وهو في طريقة إلى الحج، ودفن في مكة، وخلفه على الأمر ابنه الأكبر محمد المهدي.

وقد اجتمعت كلمة المؤرخين على أنه لم يكن في خلفاء بني العباس أعلم من أبي جعفر المنصور، وحفيده عبد الله المأمون، ودونهما في المعرفة هارون الرشيد، والواثق بالله، والمنصور معدود في الملوك الشعراء.

وقد أورد له الإخباريون وصيته الخالدة إلى ابنه وخليفه المهدي²⁰، ومن قوله في بعض مواقفه الحربية، وقد التفّت عليه جموعٌ من الأعداء :

وجعلتُ نفسي للرّماح دريئةً إن الرئيس لمثل ذاك فعولُ

وقوله، مجيباً من نصّح له بالأناة في أمر أبي مسلم الخرساني :

إذا كنتَ ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تتردّدَا

ولا تهمل الأعداء يوماً بقدرة وبادرهم أن يملكوا مثلها غداً

وقوله أيضاً :

تقسمني أمران لم أفتتحهما بحزم ولم تعرك قواي الكراكرُ

وما سارو الأحشاء مثل دفينة من الهمّ ردتها عليك المصادر

وقد علمت أبناء عدنان أنني لدى ما عرا مقدامة متجاسر

20. الكامل لابن الأثير - 6 ص 9.



وله غير ذلك من الشعر الحماسي، نظمته أثناء ولايته وقبل أن يتولى.

عني المنصور عناية خاصة بالبلاد الإفريقية وبأهلها منذ قبض على زمام الخلافة إذ كان يعلم من حقيقة أمرها ما بصره به العيان، فقد سكنها وأقام بها زمناً. وعرف خباياها، وخبر رجالها، فلا غرو إذن أن يصطفى لإمارتها كبار قواد دولته، مثل محمد بن الأشعث الخزاعي، والأغلب بن سالم التميمي، ويزيد بن حاتم المهلي، وأخيه رُوح بن حاتم، وما منهم إلا من قاد الجيوش في الفتوح، وتوسّد جلائل الأعمال في تلك الدولة الفتية الناهضة.

ويروى عن المنصور أنه كان يسأل من يفد عليه ببغداد من أهل إفريقية: «كيف حال إحدى القيروانين؟» يعني بذلك مدينة تونس إذ أقام بها فترة من الزمن.

والآن وقد قصصنا عليك ما كان من صلة أبي جعفر المنصور بالقيروان قبل الخلافة وبعدها، نلمح إلى ما كان من صلة ذرية العباس بن عبد المطلب - عم النبي صلى الله عليه وسلم - بإفريقية التونسية، وما لهم من قدم صدقٍ في فتحها...

شارك عبد الله بن عباس - حبر هذه الأمة - في أول غزوة لإفريقية، مع عبد الله بن أبي سرح سنة 27 هـ. وهو الذي قسّم الغنائم بين القواد والأجناد في (سبيطة).

والغزو الثاني لإفريقية باشره شقيقاً عبد الله بن عباس، وهما (مُعبد) و (عبد الرحمن) سنة 35 هـ. مع الأمير معاوية بن حُديج، وقد استشهدا جميعاً - رضي الله عنهما - في فتحها، ودفنا في تربتها، وتبرك أديهما باشتماله على رفاتهما الطاهر²¹. وثلاثتهم أبناء العباس عم الرسول، عليهم صلوات من ربهم ورحمة.

وقد أسفلنا لك من نبأ منصور بن يزيد الحميري أنه اتخذ بالقيروان داراً فسيحة لأهل بيته ومواليه، ويبدو أنه كان واسع الثراء، يتخذ الحاشية والاتباع، فمن مواليه حفص الذي تولى بعد

21. لنا بحث مطول - في غير هذا - عن استشهد من الصحابة في التراب التونسي، وقد بسطنا فيه من الكلام عن تاريخ أبناء العباس.



خراج افريقية، يدير أموال البلاد، وابتنى لنفسه قصرًا اشتهر باسمه (قصر حفص)، وذلك في عاصمة القيروان وقد ورد ذكر هذا القصر كثيرًا في تراجم الأفرقة.

كان لمنصور الحميري عدة أولاد في القيروان من أشهرهم : يزيد بن منصور الذي التحق بآبَن أَخْتَه مُحَمَّدَ الْمَهْدِي لما آلت إليه الخلافة سنة 158 هـ. فقربه المهدي منه، واستعان به في المهمات، وأسند إليه المناصب، مثل ولاية خرسان، والكوفة، واليمن، وإمارة موسم الحج، وقد لمع اسم يزيد حتى مدحه عليّة الشعراء، كأبي نواس، وتوفي يزيد سنة 165 هـ.

ومّا يحسن التنبيه إليه في هذا الصدد أنّ أبا محمد يحيى بن المبارك اليزيدي النحوي الطائر الصيت، صاحب أبي عمرو بن العلاء وأحد كبار القراء، إنما قيل له اليزيدي لأنّه كان يؤدّب ولد يزيد بن منصور هذا، فنسب إليه، ثمّ أنّه أدّب بعد ذلك الخليفة المأمون.

طبق الورد

جلس رُوح بن حاتم المهلبّي أمير إفريقية²² يومًا في منظره له بقصره في القيروان ومعه زوجته (طلّة الهندية)، فدخل إليه الخادم بطبق فيه ورد أحمر وأبيض في غير أوانه، فاستظرفه رُوح وسأل الخادم عن أمره، فأخبره أن رجلاً أتى به هديّة فأمر رُوح أن يملأ له الطبق دراهم.

فقلت له زوجته : - ما انصفته !

فقال : وَلَمْ ؟

قالت : - إنّه أتى بلونين أحمر وأبيض فلونه أنت له أيضا.

فأمر رُوح أن يخلط الطبق دراهم ودنانير فخلط ودفع له.

22. من الحلة السيرة لابن الأبار طبع مونيخ 1866 - وحلبة الكميت طبع مصر سنة 1299 ص 236.





الدور الأغلبي



تمهيد

لا يخفى أنّ أوّل أسرة حكمت البلاد الإفريقيّة بنوع من الاستقلال الداخلي بعد الفتح الإسلامي هي (دولة الأغالبة) ورأس هذه الأسرة ومؤسسها هو ابراهيم بن الأغلب التميمي.

نشأ ابراهيم بمصر وتلقى العلوم الإسلاميّة من الراوية الشهير والمجتهد الكبير (الليث بن سعد) ولازمه مدة طويلة حتى أترع بالعرفان ثم أزمع على السفر إلى إفريقية مع أبيه في إحدى النجدات العربيّة. فلما أن وقت الرحيل أهدى له شيخه جارية كان ربّاهما بين حضائنه اسمها (جَلْجُل).

وفد ابراهيم على إفريقية وامتاز من بين أقرانه بأصالة الرأي والشجاعة والبأس، فلم يلبث أن انتخبه الجند المصّري لرئاستهم. ومن حسن سياسة هارون الرشيد أن ولاه إمارة المغرب لما بلغه عنه من اللياقة وحسن التدبير. وقد خوله حقوقاً ممتازة لم ينلها واحد من الولاة قبله. ولا غرو فإن اختيار الرشيد قد صادف محله إذ لم يكن بين رجالات إفريقية أقدر من ابن الأغلب على القيام بأعباء الإمارة لا سيما في تلك الظروف الحرجة.

تولى ابراهيم إمارة المغرب - سنة 184 - وبعد أن مهدّ راحة البلاد وأمّن سُبُلها بجيش منظم ابتنى قرب القيروان مدينة سماها (العبّاسية) تخليداً لذكر ساداته من بني العباس واتخذ بوسط المدينة المحدثّة قصرًا لنفسه لقبه (بالرّصافة) محاكاةً لمعالم العاصمة البغداديّة ومجاراةً للذوق العربي.

شهامة عربيّة

في قصر الرّصافة هذا ولد لإبراهيم من زوجته (جَلْجُل) ولد سماه (زيادة الله) وهو أوّل من عُرف بهذا الاسم. وبعد مدّة توفي ابراهيم الأكبر في عزه ونخوة ملكه وقد ترك لبنيه من بعده إمارة شاسعة الأطراف دافقة الخيرات.

فلم تمض بُرهة من الزمن حتى اعتلى زيادة الله عرش الإمارة الإفريقيّة. ولأوّل عهده بالولاية ثار عليه زعيم من رؤساء الجيش يدعى عامر بن نافع فإنه تمكن من استمالة الجند المصّري إليه وقصد افتكاك السلطة من بني الأغلب، فبادر زيادة الله لقمع هذا الثائر.

وفي أثناء المقاومة بلغ زياد الله أن أخت عامر بن نافع حلفت إن ملك أخوها القيروان تُلزم (جَلاجل) بطبخ قدر من الفول لها، وكان من القدر أن ظفر زيادة الله بعامر بن نافع وقمعه عن مقصده - سنة 218 - فلما عاد منصوراً إلى القيروان أمر بعض خدمه بإحضار قدر من الفول المطبوخ وأرسله إلى أخت عامر وأسر إلى الرسول أن يبلغ أخت عامر على لسان أمه هذه الكلمات :

«إن مولاتي تقرئك السلام وتبلغك هذه القدر لتكوني بارة في يمينك !» فارتعدت أخت عامر لذلك وكان من جوابها :

«قولي لمولاتك أن لها الأمر اليوم فلتفعل ما تريد !»

فلما بلغ جلاجل ما فعله ابنها زيادة الله دعت إليها في الحين وقالت له :

«لقد ساءني يا بُني ما فعلته مع أخت عامر، لأن إظهار العظمة عند المقدرة ليس من شيم الكرام. وكان عليك أن تغض الطرف وتفعل خلاف ما فعلت، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن من كظم غيظاً يقدر على انفاذه ملأه الله أمناً واثماً يوم القيامة).

فامتثل زيادة الله لقولها وقال :

«صدقت يا أماء ! وسأفعل معها ما يسرك ويرضي الله والناس أجمعين».

ثم إن (جلاجل) أرسلت لأخت عامر بفرو ثمين ومال وأشياء أخرى نفيسة مما سرّها وأزال عنها كل روع²³.

فله تلك النفس الزكية التي تعفو عند المقدرة عن مزال غيرها وعثراته ولو كبرت، عملاً بقول الحق جلّ وعلا : (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين).

23. مقتطف من تاريخ النويري الكبير المسمى «نهاية الارب» -خط-

ولا جرم أن ما أظهرته (جلاجل) من الإحساس الشريف والعاطفة الشماء إنما هو ثمرة التربية العربية التي تغذتها في شبابها من مولاها الليث بن سعد ونقلتها من زوجها ابراهيم بن الأغلب، وكيف لا يجدر بأبناء لهم أمهات صالحات مثل (جلاجل) أن يفتخروا بهن؟

عدوة القرويين

بينما كان بنو الأغلب يواصلون السعي في مد سلطانهم على إفريقية الشمالية وجزائر البحر المتوسط إذ ظهرت بالمغرب الأقصى دولة عربية توصلت لفصل تلك البلاد عن ملك الأغلبة واستقلت بها وهم : (الأدارسة العلويون). ولما توطد الأمر لأفراد هذه الأسرة رغبوا في جلب بعض البيوتات العربية تعزيزاً لجنابهم واستئناساً بقربهم إذ كان الأدارسة يرون أنفسهم كالغرباء المنقطعين بين الأمم البربرية المخيمة بتلك الأصقاع، ففي أيام ادريس الأصغر قصد المغرب وفود من عرب إفريقية والأندلس نازحين إليه، وملتفين عليه، فاجتمع لديه نحو خمسمائة بيت من قيس والأزد، ومذجح، ويحصب، والصدف وغيرهم. فسر ادريس بوفادتهم وأدنى منزلتهم وجعلهم بطانة دون البربر. ولم تزل الوفود تتوارد على هذا الأمير حتى ضافت مدينة (وليلي) - وكانت عاصمته - فأراد أن يتخذ مدينة لسكناء ونزول خاصته ورجال عصبته. فاخترت مدينة فاس - سنة 192 - وجعلها قسمين يفصل بينهما نهر سبو، وسمي القسم الأول (عدوة القرويين) لنزول العرب الوافدين من القيروان بها وكانوا زهاء ثلاثمائة بيت.

ودعا القسم الثاني عدوة الأندلس. وانتقل ادريس لسكنى عدوة القرويين بعد أن حاطها بسور واتخذ بها الدور والحمامات والأسواق.

أم البنين الفهرية

من بين العرب النازحين إلى المغرب الأقصى مع تلك الوفود امرأة صالحة من أهل القيروان تسمى (فاطمة بنت محمد الفهري) وتكنى أم البنين، نزلت في أهل بيتها بعدوة القرويين على عهد إدريس الثاني، وبعد مدة مات زوجها وإخوتها فورث منهم مالا جسيماً وكان من الحلال الطيب، فتعلقت همّتها السماء بصرفه في أعمال البر، وعزمت على بناء مسجد تجد ثوابه عند الله في الآخرة (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) فاشتريت أرضاً بيضاء قرب منزلها بالقرويين كان أقطعها الأمير إلى رجل من هؤارة وشرعت في حفر أساس المسجد وبناء جدرانها بالطابية والكذان. وكانت الطريقة التي سلكتها في بنائه أنّها التزمت أن لا تأخذ التراب وغيره من مادة البناء إلا من نفس الأرض التي اشتريتها دون غيرها مما هو خارج عن مساحتها، فحفرت كهوفاً في أعماقها وجعلت تستخرج الرمل الأصفر الجيد والحجر الكذان والجص وتبني به، تحرياً منها أن لا تدخل شبهة في تشييد المسجد، ثم أنّها انبسطت بصحنه بئراً حلوة للبناء والشراب²⁴. فجاء المسجد محكم البناء، فسيح الأرجاء، ذا رونق وبهاء، ولم تزل فاطمة القيروانية صائمة من يوم شرع في بنائه إلى أن تمّ، وصلت فيه شكراً لله تعالى وامتناناً لفضله الكريم الذي وفقها لأعمال الخير - وذلك يوم السبت فاتح رمضان المعظم من سنة 245 - قال ابن خلدون²⁵: «فكأنما نبهت عزائم الملوك من بعدها» ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقد عادت بركة نيتها الصالحة وورعها على هذا المسجد حتى كان منه ما ترى اليوم إذ هو (جامع القرويين) الشهير، والمعهد الديني المعتبر، أكبر كلية عربية في البلاد المراكشية.

وقال ابن أبي زرع²⁶ «هما أختان فاطمة أم البنين ومريم أم القاسم بنتا محمد الفهري القيرواني. بنت فاطمة (جامع القرويين) المذكور، وبنت مريم (جامع الأندلس) من مال حلال طيب

24. الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى - ج 1 ص 76.

25. تاريخ ابن خلدون، طبع بولاق ج 4 ص 15.

26. روض القرطاس، طبع فاس سنة 1305 ص 33.





موروث عن أبيهما وأخوتهما. فلم يزل المسجدان على ما بنتهما الأختان بقية أيام الأدارسة حتى تقضت أيامهم».

اللهم إنك إذا وفقت أمة للرفي، وأذنت لها بالسعادة أيقظت في أفرادها - رجالاً ونساءً - وجداناً شريفاً وشعوراً عالياً يدفعهم للقيام بصالح الأعمال.

إن هذه التقوى وهذا الزهد، وإن كان أليق بمثل الأختين القيروانيتين وأجدر بمن كان حياً في العصر الإسلامي الأول، إلا أن في عملهما المبرور عظة وعبرة لو تذكرها الخلف. نظر الله وجههما وشكر صالح سعيهما، بمنه وكرمه.

فقيهنا القيروان

الأولى هي (أسماء بنت أسد بن الفرات) عالم إفريقية وقاضيا وصاحب الامامين أبي يوسف يعقوب ومالك ابن أنس.

نشأت أسماء بين يدي أبيها - ولم يكن له سواها - فأحسن تهذيبها وثقف ذهنها علماً وحكمة، وكانت تحضر مجالسه العلمية في داره وتشارك في السؤال والمناظرة حتى اشتهرت بالفضيلة ورواية الحديث والفقه على رأي أهل العراق أصحاب أبي حنيفة.

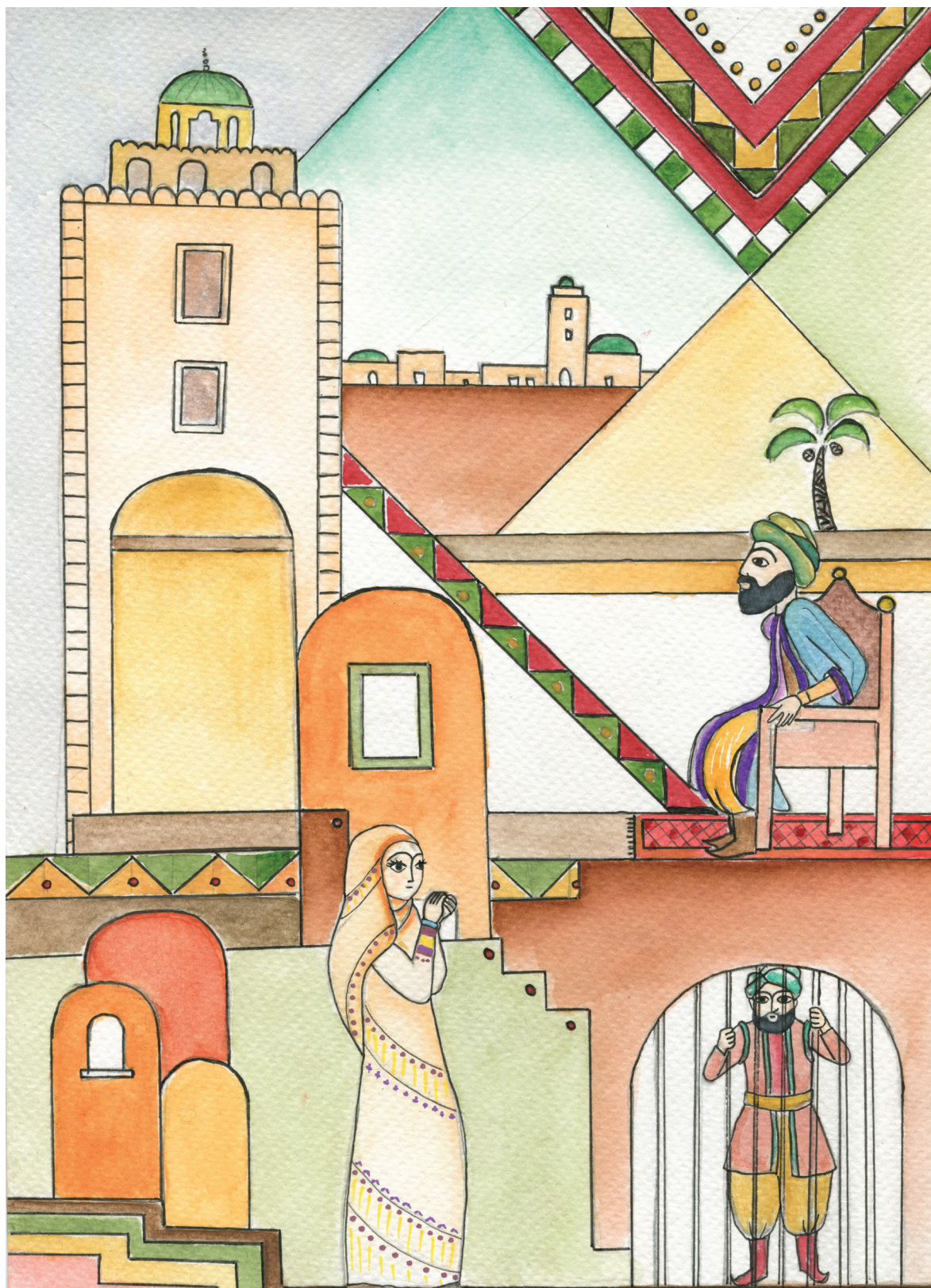
ولما تقلد أسد إمارة الجيش المعد لفتح جزيرة صقلية على عهد زيادة الله الأول، وهرع الناس لتشيعه، وقد نشرت البنود والالوية، وضربت الطبول والأبواق خرجت أسماء لوداع أبيها وأوصلته إلى سوسة حتى ركبت الاجناد الأساطيل العربية وبقيت معه إلى أن غادرت السفن المرسى باسم الله مجراها ومرساها.

وأتاح الله للقاضي الأمير أسد من النصر العزيز والفتح المبين في قلاع تلك الجزيرة وحصونها ما خلد له في التاريخ أعظم فخر وأشرق ذكر. واستشهد أسد - سنة 213 وهو محاصر لمدينة سرقوسة عاصمة الروم بصقلية واللواء بيده اليسرى والسيوف مسلولة باليمنى وهو يتلو قول الله : إذا جاء نصر الله²⁷.

وبعد وفاة أسد تزوجت أسماء بأحد تلاميذ أبيها وهو محمد بن أبي الجواد الذي خلف أستاذه في خطة القضاء وتولى رئاسة المشيخة الحنفية بالبلاد الافريقية - سنة 225 - ثم تخلّى عن القضاء ولحقته محنة من خليفته فإنه اتهمه بمال الودائع وسجنه. وبينما ابن الجواد في محبسه اذ جاءت زوجته أسماء للقاضي الجديد وقالت له :

أنا أهب هذا المال المزعوم يقضيه عن نفسه.

27. كتاب الوافي بالوفيات للصدفي (خط).



فقال لها القاضي : أن أقرّ أن ذلك هو المال أو بدل منه أطلقه. فامتنع ابن أبي الجواد من الاعتراف وأبى القاضي إطلاقه. ثمّ بعد حين عزل ذلك القاضي وعاد زوج أسماء لمنصبه الأوّل ولم يؤخذ سالفه بما فعل معه منة منه وتكرّما²⁸.

ولم تزل (أسماء الأسدية) معظمة معززة عند الخاصّ والعام من بيئة عصرها إلى أن توفيت في حدود سنة 250. فرحمها الله ورضي عنها وعن أبيها.

والثانية (هي خديجة بنت الإمام سحنون بن سعيد التنوخي) حامل لواء مذهب مالك بالمغرب. قال عياض²⁹ : «كانت خديجة عاقلة عالمة ذات صيانة ودين» وكان أبوها يحبها حباً شديداً ويستشيرها في مهمّات أموره حتّى أنّه لما عرض عليه القضاء لم يقبله إلّا بعد أخذ رأيها³⁰. وكذا كان يفعل أخوها محمد بعد وفاة أبيهما.

وعلاوة على إصابة رأيها انصفت خديجة بالعلم كما ذكر عياض، وطبيعة أنّها استمدت معارفها من والدها الخبر. وقد كان نساء زمانها يستفتينها في مسائل الدين، ويقتدين بها في معضلات الأمور لما منحها الخالق جل ثناؤه من كمال العقل والمدارك العالية.

قال أبو داود العطار³¹ : أرسلني أبو جعفر أحمد بن لبدة ابن أخي سحنون لأخطب له خديجة من أبيها وكانت من أحسن النساء وأعقلهن، فذكرت ذلك لسحنون فقال لي : هممتُ بذلك، وسكت، ثمّ أتاه ابنه محمد فاستشاره ولم يجب الخطبة.

وتوفي سحنون فأرسلني ابن لبدة إلى محمد فذكرت ذلك له فقال : «كيف أتجاسر على ما لم يصنعه أبي؟» فسكت عنه حتى توفي محمد، فأرسلني إليها فقالت لي :

«ما لم يفعل أبي وأخي أنا أصنعه ؟ لا أفعل أبداً».

28. ترتيب المدارك لعياض ج أول (خط).

29. الكتاب المذكور.

30. معالم الإيمان ج 2 ص 54.

31. ترتيب المدارك للقاضي عياض ج أول (خط).





لعمرك إنّما منع خديجة من الزواج بقربها العالم الحياء والحشمة التي فطرت عليها وكأنّها أرادت احترام نيّة والدها وأخيها ولو أدّى ذلك الانقباض إلى تضحية شبابها والاقتصار على أشغال حياتها بما يرضي الرب من صلاة وعبادة ونصيحة وإفادة حتّى ماتت وهي بكر - في حدود سنة 270 - ودفنت حذو أبيها وأخيها بمقبرتهم المشهورة بهم خارج مدينة القيروان.

مهرية الأغلبية

هي الأميرة مهريّة بنت الحسن بن غلبون التميمي، نشأت أواسط القرن الثالث للهجرة بمدينة رقّادة قرب القيروان في عزّ ورفاهية إذ كانت من الأسرة الأغلبية الحاكمة لإفريقية وتربّت في تلك البيئة الراقية، وتلقّت العلوم مع تربّها حتّى اتقنت العربية ونبغت في القريض، ونبعت قريحتها الشعرية بما يكنّه صدرها من الخواطر اللطيفة والعواطف الرقيقة. واشتهرت في زمانها بالأدب الغض ووصف نظمها بالجودة.

ومن الأسف أن لم يصلنا من شعرها سوى قطعة أنشدتها في رثاء أخيها الأديب أبي عقّال وقد مات غريباً عن الوطن - سنة 291 - قالت³² :

لَيْتَ شعري ما الَّذي عَانَيْتُهُ ؟ بعد طول الصوم مع نفي الوَسْنِ
مع غروب النفس عن أوطانها والتخلّي عن حبيب وسكْنِ
يا شقيق ليس في وجد به غلة تمنعني من أن أجن
وكما تُبلى وجوه في الثرى فكذا يبلى عليهن الحزن

ومن الطُرف التي يناسب ذكرها في هذا المقام - والشيء بالشيء يذكر - ما اتفق لابي عقّال شقيق شاعرنا. فقد كان أبو عقّال هذا في صغره مَاجِنًا خليعاً على عادة الشبان في كل زمان ومكان، فعنّ له مرّة أن يحضر عرساً لبعض أقاربه من بني الأغلب، فتزيا بشكل امرأة ليخفي جنسه ودخل على تلك الصورة بين النساء ولم يتفطن إليه أحد، لكن بعد ساعة فَقَدَتْ إحدى المدعوات دُرَّةً ذات قيمة عالية، فأمرت صاحبة العرس بالباب فأغلق على من بالدار من النساء وجعلت تفتّش كل امرأة تريد الخروج. وإذ ذاك أخذ أبو عقّال من الجزع والخوف ما أخذ.

32. معالم الإيمان ج 2 ص 144 وبساط العقيق للمؤلف طبع تونس سنة 1330 ص 36.



شهرات التونسيات



قال أبو عقال : «فتبتُ إلى الله عزّ وجلّ على فعلي . وتماذوا في التفتيش حتّى لم يبق بالمنزل إلاّ أنا وامرأة واحدة وهي ترادفني وتريد أن تكون ورائي، وأنا أدفعها إليهن إلى أن أخذوها فوجدوا الدرّة معها. فقالوا لي : انصرفي يا هذه المرأة. فخرجت وأنا أرتعد خوفا وخجلا فأزلت الخُفَّ والمعجّر والرداء التي كانت علي من زيّ النساء وتماديت على التوبة».

تربية الجوّاري

روى لسان الدين بن الخطيب³³ أنّ ابراهيم الثاني من بني الأغلب دخل يوما على أمّه (اتراب) فقامت إليه ورحّبت به ودعت بطعام وشراب فتناول منه وتحادثا فلما رآته قد انبسط قالت له : «إنّ عندي جارتين أدبتهما لك وأدّخرتهما لمسرتك، وقد طال عهدك بالأنس، وهما تحسنان القراءة بالألحان فهل لك أن أحضرهما للقراءة بين يديك؟»

فقال : أفعلي

فأمّرت بإحضارهما فحضرتا وقرأتا أحسن قراءة. فقالت له أمّه : «فهل ترى أن تنشداك الشعر؟»

قال : نعم، فأمّرتهما فأنشدتا من رقيق الشعر أحسن ما يسمع

فقالت له : «هل لك في الغناء؟»

قال : نعم، فأمّرتهما فغنّتا ارتجالا بأجمل صوت

ثم قالت : «فهل لك أن تغنيا بالعود؟»

قال : نعم، فغنّتا بالعود والطنبور أبدع غناء..»

33. كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب، طبع بلرم سنة 1910 م ص 16.



ومن هذه الحكاية يستفاد ما كانت عليه حالة الجوّاري بالقطر الإفريقي من الأدب والتهذيب وهو أثر من آثار الرقي الاجتماعي، ودليل على استعداد الأمة لتأهيل نساء عارفات أدبيات ولو كنّ من الجوّاري فضلاً عن بنات الأمراء والوزراء والأعيان والأغنياء.

حرارة الغرام

ومن لطيف ما نقله الصفدي³⁴ عن الأمير إبراهيم بن الأغلب المذكور. وهو يمثّل لك حسن ديباجته وكرم أخلاقه. قال :

«خرج إبراهيم يوماً للنزهة بجهة رقادة فاعترضه رجل وقال : «أبقى الله الأمير، أنا رجل عشقتُ جارية قلماً عشقه أحد، فرغبت إلى مولاهما في بيعها فقال لا أنقصها عن خمسين ديناراً، فنظرت في جميع ما أملكه فإذا هو ثلاثون ديناراً وبقي عليّ عشرون ديناراً، فإن رأى الأمير أبقاه الله أن ينظر في أمري ويتفضل عليّ».

فدعا إبراهيم سيد الجارية وأمر له بخمسين ديناراً وللرجل العاشق بخمسين ديناراً أخرى. فسمع بذلك انسان آخر فاعترضه وقال :

«أيها الأمير إنني عاشق !»

فقال : «فما الذي تجد في نفسك ؟»

قال : «حرارة عظيمة»

فقال الأمير : «خذوه فاغسلوه في ماء بالثلج حتى يبرد ما في قلبه». ففعلوا ذلك به، ثم أتوا به وهو يرتعش، فقال له :

34. الوافي بالوفيات للصفدي (خط).

«ما فعلت تلك الحرارة؟»

قال : «والله يا مولاي مكانها برد شديد !»

فضحك منه وأمر له بعشرين ديناراً.

خفايا القضايا

ولندرج هنا نادرة أخرى لإبراهيم الثاني لها مساس بموضوعنا تنبئك عن عدل هذا الأمير الجليل وعن فطنته العجيبة في إظهار خفايا القضايا.

حكى عز الدين ابن الأثير في تاريخه³⁵ :

«أن رجلاً تاجراً من أهل القيروان كانت له امرأة جميلة اتصفت بالصلاح والعفاف، فاتصل خبرها بوزير الأمير إبراهيم، فأرسل إليها فلم تجبه، فاشتد غرامه بها، فشكا حاله إلى عجوز كانت تغشاه، وكانت أيضاً لها عند الأمير منزلة ولها عند والدته حظوة كبيرة، وهي موصوفة عندهم بالصلاح يتباركون بها ويسألونها الدعاء، فقالت العجوز للوزير : -أنا اتلطف بها وأجمع بينكما- وراحت إلى بيت المرأة فقرعت الباب وقالت : -قد أصاب ثوبي نجاسة أريد تطهيرها - فخرجت إليها المرأة ولاقتها بكل ترحيب وأدخلتها الدار وطهرت ثوبها، وقامت العجوز تصلي وعرضت المرأة عليها بعد ذلك الطعام فقالت : -إنني صائمة ولا بد من التردد إليك- ثم صارت تغشاها من حين إلى آخر، ودخلت عليها يوماً وقالت لها : -عندي بنت يتيمة أريد أن أحملها إلى زوجها فإن خف عليك إعاره حليك أجملها به، فعلت- فأحضرت المرأة جميع حليها - وكان شيئاً ثميناً - وسلّمته إليها، فأخذته العجوز وانصرفت وغابت أياماً وجاءت، فسألتها عن حليها فقالت : -هو عند الوزير، عبرت عليه اليوم عند قدومي إليك والحليّ معي فأخذه مني وقال لي : لا أسلمه إلاّ إليك فتنازعتا أشدّ نزاعاً وخرجت العجوز، وجاء التاجر زوج المرأة إلى منزله فأخبرته الخبر.

35. تاريخ الكامل ج 7 ص 113.



خرج الرجل حالا إلى (رقادة) حيث قصر الأمير، وأخبره بالقصة من أولها إلى آخرها، فلم يجبه الأمير ابراهيم شيئاً ودخل إلى والدته وسألها عن العجوز، فقالت: هي بالقصر تدعو لك بطول البقاء، فأمر بإحضارها للتبرك بها، فأشخصتها والدته بين يديه، فلما رآها أكرمها وأقبل عليها بالحديث اللين وانبسط معها حتى اطمأنت، ثم إنه في عرض الحديث أخذ خاتماً من إصبعها وجعل يقلبه ويعبث به، ثم إنه غاب لحظة أحضر فيها أحد فتياته النبهاء وقال له:

-انطلق إلى بيت العجوز وقل لابنتها تسلم لك الحق الذي فيه الحلي وصفته كذا وكذا وهذا الخاتم علامة منها.

فمضى الخادم ولم يبطء أن أحضر الحق بما فيه، فأخذه الأمير ودخل على العجوز وسألها: هل تعرفين هذا الحق؟- فلما رآته سقط في يدها وارتعدت فرائسها وأيقنت بالهلاك، فأمر بها فقتلت حالا ودفنت بطرف القصر، ثم أن الأمير أحضر التاجر وناوله الحق وأضاف إليه شيئاً آخر من عنده وقال له:

-أما الوزير فان انتقمته منه الآن ينكشف الأمر ويذيع الخبر، وهو ما لا أريده، لكن سأجعل له ذنباً أخذه به،- فتركه مدة يسيرة وجعل له جرماً كان سبباً في هلاكه.

آثار النساء

أشرنا إلى تربية الجوّاري بقصور الأمراء من بني الأغلب وتعليمهن كل ما يليق بهن من الآداب والأخلاق الإسلامية، وربما تبادر للفكر أن تلك التربية كانت منحصرة في اللواتي ينشأن بالبلاط المملوكي لغاية تأهيلهن أن يكن أميرات فاضلات وأمّهات عارفات.

والحقيقة أن التربية على تلك الصورة الكاملة كانت شائعة ومتبعة بين طبقات الأمة، وأدل دليل عليه المصحف الشريف الموجود الآن في مكتبة جامع عقبة بالقيروان الذي خطته براعة جارية قيروانية وقد أحسنت في إتقان رسمه وتزويقه وتذهيبه وهذا نص توقيفه بخطها المشاهد بالورقة الأخيرة منه:



«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما حسبت فَضَّلَ مولاة أبي أيوب احمد بن محمد رحمه الله طلباً لثواب الله والدار الآخرة. رحم الله من قرأ فيها (أي الختمة) ودعا لصاحبته. وكتبت فضل بخطها في المحرم سنة خمس وتسعين ومائتين»

على أننا لم نعلم من أخبار فضل هذه ولا من ترجمة مولاه شيئا.

ولا جرم أن أمثال هذه الجارية المجهولة كنَّ على العهد الأغلبي كثيرات، غير أنه لم تبلغ لنا آثارهنَّ. وضرورة أن العلم والرقى والآداب إذا كانت منتشرة في قطر تكون عامة بين أفراد الشعب من الأمير إلى الغني والتاجر والمحترف.

اللهم ! لقد بُعدت بيننا وبين السلف مسافة الخلف، وانقطعت التربية الصحيحة من قصور الأمراء، ونشأ الجهل في دور العظماء، وتنوسيت الأصول والتقاليد فأل أمرنا إلى ما ترى — والله عليم بعاقبة الأمور...

المصاهرات بين العباسيين والأغلبة

ومن غريب الموافقات أنه لا تكاد تمرّ مائة عام على انتصاب الدولة الأغلبية حتّى يقدم على افريقية أمير عباسيّ في بواكير الصبا، من حفدة أم الخلائف (أروى) الحميرية القيروانية التي تقدّم ذكرها وذلك في نحو سنة 270 هـ.

ذلك الشاب هو عبد الوهاب بن الخليفة المهدي ابن الخليفة الواثق، وقد خرج من بغداد بعد مقتل أبيه بأعوام، فوصل إلى القيروان في مدة الأمير ابراهيم الثاني من بني الأغلب، فأحسن الأمير لقاءه، وأنزله بجوار قصره «الفتح» في أحد المنتزهات البديعة التي أنشأها في مدينة رقّادة.

ورغب الأمير الشاب في الاصحار إلى الأسرة الأغلبية، فزوّجه ابراهيم الثاني ابنة أخيه المتوفى الأمير محمد الثاني الملقّب بأبي الغرائق. وتوالت ولائم العرس أياما وليالي في رقّادة، وكان المتولي لعقد الزواج هو القاضي الطائل الصيت : عبد الله بن طالب التميمي صنو الأغلبة.

سكن عبد الوهاب وعروسه في قصر لطيف تحفّ به حديقة غناء ذات أفنان، وزهر وريحان، وولد لهما محمد وحسين فنشأ كلاهما في رعاية عمّ والدتهما حتى ألهما بالتربية لشغل المناصب الرفيعة في الدواوين، وبينما كانا في صباهما فارقهما أبوهما عيد الوهاب عائداً إلى العراق (سرّ من رأي)، فظلّ الأميران الصغيران مع أمّهما إلى أن توفاهما الله في سنة 285 هـ.

وطرقت افريقية طوارق الحدثان، وتجمعت البوادر المؤذنة بسقوط دولة بني الأغلب التميمية. وقيام الدولة العبيدية الفاطمية مكانها. فاستنكف الأميران العباسيان أن يقيما بإفريقية، والتحق أكبرهما أبو اسحاق محمد بالأندلس قاصداً خليفته عبد الرحمن الناصر، فاحتفى بمقدمه عليه في قرطبة، وأجرى له رزقاً واسعاً في كل سنة، ومات أبو اسحاق محمد في خلال سنة 323 هـ، ولم يعقب.

أما أصغر الأخوين : الحسين بن عبد الوهاب، فإنّه ما كاد يشهد أقول نجم بني الأغلب حتّى رحل إلى جزيرة صقلية وأقام بعاصمتها (بلرم) إلى أن وافاه الأجل المحتوم فدفن هنالك، ولا ندري أعقب أم لا ؟

وبما مرّ بنا مُجملًا في هذه العجالة، يتبين لنا أنّ الجالية العربية النازحة إلى افريقية التونسية خلال القرنين الثاني والثالث، كانت تعدّ بينها وجوهاً من أبناء البيوتات المشهورين بفصاحة الألسن، وسعة الأدب ووقور الأحساب، وأصالة الأنساب، وفي ذلك بلاغ !.

ولا غالب إلاّ الله

ولنختتم أخبار نساء الدور الأغلبي بذكر حادثة تمثل لك كيف غربت شمس الإمارة الأغلبية.

ظهر في أواخر القرن الثالث أبو عبد الله الصنعاني القائم بالدعوة الفاطمية في المغرب، فبعدها اجتمعت عليه قبائل البربر من كتامة ومصمودة وغيرهم تقدم يفتح باسم عبيد الله المهدي المدن الإفريقية الواحدة عقب الأخرى إلى أن بلغ أحواز (الأرّس)، وهنالك التقى بجيش الأمير أبي مضر زيادة الله الثالث فهزمه الهزيمة التي كانت سببا في انقراض الدولة الأغلبية - سنة 296 - فلما اتصل خبر الانهزام بزيادة الله بمكانه من رقّادة حذو القيروان أيقن أنّ الأمر فسد فساداً لا يقبل الإصلاح وأن الدولة قد أذنت بالانقراض، فتأهب لمفارقة الديار واشترى أمتعة للسفر وأخذ في رفع الأموال ونفيس الخلع واصطفاء المجوهرات، فاختر السّلاح وحمل من يعزّ عليه من أمهات أولاده وجواريه.

ثمّ انتخب من عبيده الصقالبة ألف خادم وجعل في وسط لك واحد منهم ألف دينار خوفاً من لحاق أحماله، وقد ترك ضرورة كثيراً من اتباعه وقيّانه، فلما استكمل عدّته خرج من رقّادة ليلا بين أهله وحشمه، فوقفت إليه جاريته (سُلاف) وقد أخذت العود على صدرها واندفعت تغنيه لتحمله على لحاقها به وتقول :

لم أنسَ يومَ الرحيل موقفها وجفنها في دموعها غرقُ
وقولها والركاب سائرة تتركني سيدي وتنطلقُ
استودعَ الله ظيئة جزعت للبين والبين فيه لي حرق



ولم تكد تكمل (سُلاف) الأبيات حتّى خنقت العبرة زيادة الله وتتابعته دموعه، فأمر بحط حمل مال عن بغل وحملها عليه. وما أذن المؤذن بالعشاء الأخيرة حتّى خرج آخر بني الأغلب من رقادة قاصداً المشرق واتبعه الناس قوماً بعد قوم يهتدون بالمشاعل³⁶.

ذكرني حال زيادة الله هذا خبر أبي عبد الله بن الأحمر آخر سلاطين الأندلس لما فارق بآل بيته غرناطة وقد وقف على ربوة مُعتبراً بزوال ملكه - والملك له وحده - وأمه الأميرة عائشة بين يديه وهي تحاوره وتعاتبه :

«بُنيّ! أبك اليوم بكاء الثكلى سلطنة لم تحسن الدفاع عنها الرجال!» نعم ربما سرى عن ابن الأحمر، في تلك الساعة المرة وذلك الموقف الرهيب، ما كان يتجلّى لناظره من شعار دولة أجداده بني نصر الزاهية «ولا غالب إلاّ الله» الذي كانوا يرسمونه بالقلم الكوفي العريض على جدران قصر (الحمراء) خلال النقوش المزخرفة والهندام الجميل، فاستيقظ من سِنّة الغرور وأدرك أن الله غالبه، وأنه هو وحده (يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير).

36. أعمال الاعلام لابن الخطيب ص 446 نشرة المؤلف بكتاب تذكاري ميكالي اماري بصقلية سنة 1910.





الدُّورُ العُبَيْدِي



تهذيب البربر

قدّمنا لحضرات القارئ والقارئات فيما أسلفنا من هذا الكتاب حديث انقراض الإمارة الأغلبية وقيام الدولة العبيدية مقامها، وهي تسمى الفاطمية أيضا.

وستكلم هنا على اهتمام هذه الدولة وعنايتها بترقية وتمدين البربر حتى أهلتهم لأسمى الدرجات، وفاقوا سوية العرب وافتكوا من أيديهم سلطان البلاد، وتحكموا في رقابهم فانتظمت لهم الرئاسة وأحكموا التدبير، وروّضوا الصعاب، وأسلسوا القياد، ولعبوا أكبر دور في السياسة الإسلامية على ضفاف البحر المتوسط، ولم يكن في وسعهم أن يتناولوا بأعناقهم إلى هذه المرتبة السامية في الحياة الاجتماعية لو لم تتح لهم المقادير وجود العبيدين في أقطارهم، وانصوائهم تحت لوائهم وتكافلهم على نصرتهم، وتأيد دعوتهم، والقيام بحجتهم وتظافرهم على تملكهم ناصية المملكة الإفريقية.

قام ملك العبيدين بالعصبية البربرية وكان حُماتها ومنعتها فرّق من بطون (كتامة) و(صنهاجة) وغيرهم، فانصرفوا بكليتهم لمحو آثار السيادة الأغلبية من إفريقية، ثم أخذوا يتبارون في نشر عظمة دولتهم الجديدة بالممالك الشرقية وينازلونها مملكة بعد أخرى حتى رفعوا الراية الخضراء الفاطمية على برقة ومصر والشام والحجاز، وأضعفوا شأن الخلافة العباسية حتى صيروها شعباً ضئيلاً يتوارى بين لَبّتي دجلة والفرات، وكادوا يقضون عليها القضاء الأخير.

أي حكمة سامية نزلت على أدمغة البربر بعد أن حكمهم العبيديون حتى انقادت لهم الدنيا وأتوا بها صاغرة أمام مواليتهم؟ وأي سياسة عجيبة ساس بها الخلفاء الفاطميون رعاياهم فبلغوا بهم أرقى ذروات المجد وبوأتهم أسمى مراتب الشرف؟

وأي ثمن غال ابتاع به العبيديون إخلاص البربر حتى جعلوهم يتسابقون في خدمتهم، ويتفانون في إعلاء كلمتهم، ويتبارون في النصح لهم، وصار الخلفاء يستكفون بهم في المهمات، ويعتمدون عليهم في الملّات، ويلقون اليهم بأسنى المناصب، ويقلدونهم الولايات والمراتب...؟

لا بدع إذا قلنا أن من أكبر أسباب ذلك اعتناء العبيدين في إشاعة التعليم بين البربر - ولا سيما كتامة - وتهيئة قبيلتهم لرئاسة الجيوش وقيادتها وإدارة سياسة المملكة.

كان هؤلاء الخلفاء لا يوالون جهداً في تعليمهم وتثقيف أذهانهم بكل ما من شأنه أن يهذب الأخلاق، ويربي النفوس ويصلح الأفكار، ويرغب في الفضائل الاجتماعية، ويزكي السجيا القومية حتى بلغوا في الأمد القصير ما لم يبلغه غيرهم في الأمد الطويل.

وكان هؤلاء الخلفاء - لا سيما في صدر الدولة - يتعهدون رجال نصرتهم بأنفسهم، ويلقون عليهم المواعظ ويذاكرونهم في كل ما يروونه نافعا لهم سواء في السياسة والحرب، أو في سيرة الرجل مع زوجته.

ومن هذا القبيل الدرس الثمين الذي ألقاه الأمير (معدّ) الملقب بالمعز لدين الله، رابع الخلفاء العبيدين على شيوخ الدولة وأكابرها ننقله عن الإمام المقرئزي. ومنه تعرف مبلغ عناية هذه الدولة بتربية الهيئة الاجتماعية، واهتمامها بجلال وخافيات الأمور، خصوصا فيما يتعلق بمسألة تعدد الزوجات وخطرها على الأخلاق وسوء تأثيرها في الأمم وإفسادها لعزائم الرجال.

حسب الواحد الواحدة

قال العلامة المقرئزي رحمه الله³⁷:

«ولما كان في بعض الأيام استدعى المعز لدين الله في يوم شاتٍ عدة من شيوخ كتامة، فدخلوا عليه في مجلس بقصر المنصورية - حذو القيروان - قد فرش باللبود وحوله كساء وعليه جبة صوف وحوله أبواب مفتحة تفضي إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكُتُب، فقال :

يا إخواننا ! أصبحت اليوم في مثل هذا الشتاء والبرد فقلت لأُمَّ الأمراء³⁸ - وأنها الآن بحيث تسمع كلامي - أترى إخواننا يظنون أنا في مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب في

37. الخطط المقرئزية ج 2 : 352 طبع بولاق. وك اتغاط «الحنفاء بأخبار الخلفاء» للمقرئزي أيضا طبع القدس الشريف بعناية المستعرب هوغو بونز سنة 1908 ص 60.

38. أم الأمراء هي زوج المعز لدين الله واسمها (السيدة العزيزة) وهي أم سائر أبنائه - منهم الخليفة أبو منصور نزار الملقب بالعزيز بالله المولود بالمهدية سنة 344 المتوفي بمصر سنة 386.

المثقل والديباج والحرير والفنك والسّمور والمسك والخمر والغناء، كما يفعل أرباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضرتكم لتشاهدوا حالي إذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم، وأني لا أفضلكم في أحوالكم إلا بما لا بدّ لي منه من دنياكم، وبما خصّني الله به من إمامتكم، وإني مشغول بكتب ترد علي من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطي، وإني لا أشتغل بشيء من ملاذ الدنيا إلا بما يصون أرواحكم، ويعمر بلادكم، ويذلّ أعداءكم، ويقمع أضدادكم. فاعملوا - يا شيوخ - في خلوتكم مثل ما أفعله، ولا تظهروا التكبر والتجبر فينزع الله النعمة عليكم وينقلها إلى غيركم، وتحنّوا على من ورائكم من لا يصل إلي كتحنّني عليكم ليتصل في الناس الجميل، ويكثر الخير وينتشر العدل، وأقبلوا بعدها على نسائكم وألزموا الواحدة التي تكون لكم، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن، والرغبة فيهن فيتغنص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم، فحسب الرجل الواحد الواحدة ! وأعلموا أنكم إذا لزمتم ما أنا أمركم به رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب، انهضوا رحمكم الله ونصركم».

فانظر - يرباك الله - إلى هذه الكلمات الجامعة للحكمة والسياسة الدالة على تواضع كبار الأمراء العاملين على امتلاك القلوب، الطامحين إلى جلائل الأعمال، الخبيرين بأسرار النفس وقود النفوس.

ومن هنا أيضا تعلم سعة نظر هذا السياسي الخطير في المسائل الاجتماعية وبعد غوره في إدراك أعضل المباحث الفلسفية وكيف يفهمها ويشرحها للناس !

وهذه الفقرة مع كونها موعظة وتفكّهة للقراء فإنها أعلق من الوجهة النسائية بمباحث كتابنا هذا.



الدور الصّنهاجي



تمهيد

اقتضت سنة العمران أن الأمم لا تنال ثمرات كدّها ومجهودها من الرقي الاجتماعي بقسميه المادي والأدبي إلا بعد مضي أجيال من عهد البداية، شأن العوامل الطبيعية في الكائنات، فإن النبات لا ينضج حين زرعه دفعة واحدة بل لا بدّ له من اجتياز أدوار الاختمار والتنبّت والصلاح، والإثمار ثمّ الإنضاج. كذلك الأمم فإنّها لا تدرك نتائج عملها في طور البداية، ولا مناص لها من قطع الزمن الكافي لارساخ الملكات الملائمة لهوية العمل في نفوس الأحاد، وسريان اللقاح الأخلاقي المغذي لتلك الملكات من الأفراد إلى المجموع، وحينئذ تبدو ثمرات تلك المجهودات دانية القطوف فتنال منها الأمم قسطها من السعادة والفوز والعظمة.

تداولت على افريقية من الفتح الاسلامي دُول شتى وكانت - بشهادة التاريخ - ذات عناية بترقية البلاد وتوسيع نطاق العمران، إلا أن نتائج أعمالها لم تبلغ مرتبة الإخصاب إلا بعد قطع مسافة أربعة قرون أعني إلى عهد الأمراء الصنهاجيين، فلقد أحرز الشعب التونسي في مدّتهم على تمدن إسلامي باذخ، وحضارة عربية فائقة لم يحلم هذا القطر بما دونها ولو في العصر الروماني المزعوم رسوخه في التمدن الاستعماري.

أجل ! ارتقت البلاد الافريقية وبلغت أوج السعادة على عهد الصنهاجيين وأدركت منتهى العز الشامخ والبذخ الأقعس، ولا غرو أن ينبغ في ذلك العصر أفذاذ قادرين يكون لهم القدر المعلن في كل علم وفن، يشيدون معالم العمران على أسس العلم الصحيح والمدنية الحق. فقد انتشرت على عهدهم الصناعات، وأحييت الأرض الموات، وأنشئت الجنات المعروشات، ودرت الخيرات، وكثرت الأرزاق، وتعددت وسائل المكاسب، فعمت الثروة، وتيسّطت الرفاهية، وفشي التهذيب والتأمّ الجمع، وانتظم الشمل. فأصبحت افريقية محطاً لرجال الأعمال، وكعبة للقصّاد من طلاب الآمال. ناهيك من كعبة مساكنها القصور، وأرضها الجنان، وسكانها الحور ينمّقها الزخرف، ويحلّلها الذوق على أجمل أسلوب وأبدع طراز.

وهنا أكبح جماح القلم عن الإطالة في الوصف والفت الأنظار إلى ما وصلت إليه القيروان - أم المداين الافريقية - من ضخامة البناء وعزة الملك والبذخ الواسع والترف العجيب. وما على



القارئ الكريم إلا أن يحدق بصره قليلا إلى مواكب أمرائها ومراسمهم وحفلاتهم فإنه يرى المعجب والمطرب³⁹. ونحن سنقص عليك طرفا من أخبارها وفي ذلك بلاغ !

لكن من الفواجع والحسرات الدامية للقلوب أن تلك الحضارة الباهرة والمدنية الزاهرة لم تدم - والأمر لله - إلا قرناً أو بعض قرن ثم انطفأ سراجها وذبل نورها بيد تلك الجالية الأثيمة التي نزلت بالبلاد بإغراء من الخلفاء الفاطميين، فزعزعت أمنها ودكت معالمها وطمست آثارها ومحت محاسنها حسبما نشير إليه بعد.

39. انظر عجالتنا الموسومة «بساط العقيق في حضارة القيروان» طبع تونس سنة 1330.



الأميرات الصنهاجيات

مقصداً أن نقص في هذا الباب لباب أخبار ربّات الحِجَال، وذوات الدلّ من نابغات هذا البيت الكريم اللائي ازدان بذكرهنّ، واستنارت قصور الملك بجمالهنّ وعبقت الأرجاء بعبيرهنّ، وأولهنّ الأميرة :

أمّ ملال

واسمها السيدة بنت المنصور بن يوسف الصنهاجي. ولدت بقصر المنصورية الذي ابتناه أبوها بصبرة على ميل من القيروان. وهذا القصر أعجوبة الدنيا لما احتواه من بديع الأشكال وحسن الهندام وتعداد الأواوين وكثرة الغرف والمخادع وما حشر إليه من التحف واللطائف والبسط والنمازق والأرائك والمقاعد إلى غير ذلك من الزخارف الدالة على ما كان للإفريقيين من الرسوخ في الصناعات المستظرفة والفنون الجميلة.

شيد هذا القصر البديع وسط بستان أنيق، تتخلله الحدائق الغناء والزهرات المنضدة تجري بين أيكها الأمواه العذبة في القنوات منسابة بين البرك الناصعة وأحواض الممرم وعلى جوانبها قلائد الزهور الناضرة وكانت خمائله أوكاراً ومسارح لأنواع الأطيّار ذوات الألوان الزاهية والتغريد المطرب، بحيث لا تهب إلاّ نسيمات الأسحار، ولا تعبق إلاّ نفحات الأزهار، ولا تسمع إلاّ خرير المياه، وحفيف الأشجار، ونجوى الجمال، ونغمات الأطيّار.

وقد بلغ ما أنفق على هذا القصر فيما رواه المؤرخون⁴⁰ ثلاثمائة ألف دينار (أربعة ملايين ونصف فرنك ذهباً).

ذلك القصر الذي يقول في وصفه شاعر عصره على بن الأيادي التونسي⁴¹.

40. كتاب المؤنس لابن دينار ص 76.

41. زهر الآداب للحصري طبعة مصر سنة 1316 ج 1 : 199 — والمنتخبات التونسية للمؤلف ص 50.



ولما استطال المجد واستولت العلا
 بني قبة للملك في وسط جنة
 بمشوقة الساحات أما عراصها
 تحف بقصر ذي قصور كأنما
 له بركة للماء ملء فضائه
 لها جدول ينصب فيها كأنه
 لها مجلس قد قام في وسط مائها
 كأن صفاء الماء فيها وحسنه
 إذا بث فيها الليل أشخاص نجمه
 وإن صافحتها الشمس لأحت كأنها
 كأن شرافات المقاصر حولها
 يذوب الجفاء الجعد عن وجه مائها
 على النجم وامتد الرواق المروق
 لها منظر يزهو به الطرف موقن
 فخضر وأما طيرها فهي نطق
 ترى البحر في أرجائه يتدفق
 تخب بقطريها العيون وتعنق
 حسام جلاه القين بالأرض ملصق
 كما قام في فيض الفرات الخورق
 زجاج صفت أرجاؤه فهو أزرق
 رأيت وجوه الزنج بالنار تحرق
 فرند على تاج المعز ورونق
 عذارى عليهن الملاء الممنطق
 كما ذاب آل الصحصحان المرفق

في هذا القصر، وناهيك به من قصر، حوى المهابة والجلال والجمال، نشأت ودرجت (أم ملال) في كنف والدها صاحب افريقية وأخيها باديس ولي عهده. ولا مرأ أن تكون الناشئة في هذا المهدي وذلك العهد ذات تربية عالية وأدب غص وعلم جم، وحسبك دليلاً ما قدمنا من انصراف العناية إلى تربية وتعليم بنات السواء فأحرى بنات الأقيال والأمراء. ويؤيد ذلك أيضاً ما بلغت إليه هذه السيدة من السؤدد والرجحان على عهد أخيه نصير الدولة باديس، فإنه لما مات والدها المنصور وتولى بعده أخوها وكان يعلم تفوقها وعقلها وسعة رأيها فأخلصها حبّه، وأشركها في تدبير أمره، وانتصح برأيها في سياسة الدولة وهو في تعاليه وبعد غوره، ولو لم تكن من العلم بالمرتبة التي تخطت بها أعناق الدهاقين والفحول لما نالت هذه المكانة في دولة أخيها.

أرسل باديس في سنة 405 سفارة إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي بمصر مع هدايا ثمينة مشتملة على مائة فرس من الجياد بسروج مرصعة بأنواع اليواقيت فأردفتها أم ملال بهدايا

نفيصة إلى الأميرة (ست الملك) أخت الحاكم⁴² ومن ضمنها ثمانية عشر وقرأ من الحرير الخالص والسمور والمنسوجات الرفيعة المزركشة بالذهب الابريز صنع مدينة سوسة، ومنها عشرون فتاة من الجواري الحسان، وعشرة أعلاج من الصقالبة وغير ذلك⁴³. فبعثت لها ست الملك كتاباً تثبت فيه أوصال المودة بينهما وواصلتها بهدية فائقة.

وهكذا كانت أم ملال تشارك أخاها في الأعمال وتقاسمه معالجة سياسة الملك وإحكام الصلات الحسنة مع الدول المجاورة، وقد ساعدها على ذلك ابتلاء أخيها باديس بالقائمين عليه واشتغاله بقمعهم ومطاردتهم في كل صقع يظهرون فيه، إذ كانت أيام دولته مملوءة بالثورات والفتن الداخلية لا يقرّ له قرار دون اصماد الجيوش في وجوه المحاربين وإرضاخهم لسلطانه وطاعته، فاشتغل بالحروب وأوكل لأخته الإشراف على أعمال الدولة وسياسة الرعية.

ولما ولد لباديس ابنه المعزّ (بشرف الدولة) فرحت به أم ملال كثيراً وتبنته وعنيت بتربيته وإعداد له لتبوء الملك بعد أبيه، فكانت تسلو به عن أخيها ولا تفارقه، تشوّ به في (المنصورية) وتصطاف به في (المهدية)، وتخرج به في أبهة واحتفال محفوفة بالجند والخدم والعبيد والأعوان شأن الدول العريقة في البذخ والعزّ. ولما ترعرع وانتشى المعزّ نذبت لتربيته وتقويم نفسه رجل الدولة الخطير العالم أبا الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني⁴⁴ فأحكم تربيته وأحسن تعليمه.

في خلال سنة 406 خرج باديس لقمع بعض الثائرين الظاهرين بالمغرب الأوسط فأدركه الأجل المحتوم بمدينة (المحمدية) المعروفة (بالمسيلة) فمات بعيداً عن أهله وولده، فكتّم أكابر الدولة خبر وفاته خشية انتفاض العامة، واتفقوا على بيعه ابنه المعزّ على حداثة سنّه، إذ لم يبلغ يومئذ التاسعة من عمره، فلحدوا أميرهم المتوفى في تابوت وعادوا به إلى المهدية.

42. الأميرة (ست الملك) هي بنت العزيز بالله الخليفة الفاطمي وكانت استبدت بزمّام المملكة المصرية على عهد أخيها (الحاكم) ولها ذكر مشهور في التاريخ الإسلامي.

43. من البيان المغرب لابن المذاري طبع لندن سنة 1848.

44. البيان المغرب.

تسّم المعز ذروة الإمارة في ذي الحجة من السنة التي مات فيها أبوه بإجماع أكابر صنهاجة ومشيخة القطر وأمراء الجند والفقهاء والعلماء وأقاموا عمته (أمّ ملال) وصية عليه إلى أن يبلغ الرشد، فانبرت لتدبير المملكة بهمة وعزيمة يندران في أعظم الملوك. وخرجت بعد قبول البيعة للمعز والتعزية في باديس محتفلة بولاية الأمير الصغير بين البنود والإعلام وهتاف الداعين لتلقي بيعة العامة، ثم عادت به إلى قصر المهدي، وأفواج الأمة في أثرها جاذلين مهنيين مسرورين⁴⁵.

كان المعز أيام إقامته بالمهدية يغدو كل صباح إلى (قبة السلام) المشرفة على البحر ويحضر بنفسه إطعام الضعفاء من الناس ثم يعود إلى القصر.

تولّت السيدة أمّ ملال الأمور وتصرّفت في الشؤون بحسن تدبير ورأي ثاقب. ولم يقصّ علينا التاريخ فيما روي أن امرأة مسلمة حكمت إفريقية غير هذه الأميرة الفاضلة، واستمرت على ذلك إلى أن بلغ محجورها سنّ الرشد وتأهل لاستلام أزمة الملك، وكان المعز حافظاً للصنيعة التي لها عليه، مقدّراً لفضلها لما نال على يدها من رسوخ الذهن وتوقد العزم وبُعد النظر في الأمور، ولولا عنايتها به وحياطتها له لما أدرك من الشهرة وبعد الصيت ما جعله أنبغ ملوك عصره وعُدّ مفخرة من مفاخر هذا القطر. ولم تطل أيام ملال مع محجورها بل أصيبت بمرض أعزل أمره ولم تزل به إلى أن ماتت رحمة الله عليها.

وقد ذكر ابن العذاري⁴⁶ بمناسبة مرض الأميرة وموتها وعناية المعز بها ما يدلّ على تأصل مروءته ومكافأته الجميل بالجميل أنّه، «لما مرضت أمّ ملال كان شرف الدولة المعز يزورها في كل يوم من مرضها، ويجلس حذوها طويلاً، ويلطفها ويسليها، ويرخص لرجال دولته وأتباعه الدخول عليها ليعودوها، ودام ذلك إلى أن ختم الله أنفاسها آخر يوم من رجب سنة 414 فصلّى عليها

45. البيان المغرب أيضاً ج 1 ص 279.

46. البيان المغرب ج 1 ص 283.

المعز وأقام لها جنازة عظيمة لم ير مثلها لملك من الملوك، وشيّعت جنازتها بالبندود والطبول وحضر هذا الموكب الأميرتان أمّ المعز بن باديس وأخته». وذكر أبو القاسم الرقيق وهو من شاهد ذلك⁴⁷ قال : «كفّنها المعز بما قيمته مائة ألف دينار، وعمل لها تابوتا من العود الهندي مرصّعا بالجواهر وصفائح الذهب وسمر التابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال، وأدرجت في مائة وعشرين ثوبا، ذرّ عليها من المسك والكافور ما لا حدّ له، وقلّد التابوت بإحدى وعشرين سبحة من نفيس الجواهر. وقوّمت التجار ما صرف عليها فبلغ ما ذكرناه. وحملت إلى المهدية فدفت هناك⁴⁸. وأمر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاه فنحرت وانتهبها الناس وفرّق في مآتمها على النساء المعوزات عشرة آلاف دينار ورثاها شعراء البلاط وكانوا أكثر من مائة شاعر بمراثي جليّة⁴⁹.

هذه نبذة من حياة (أمّ ملال) تبين للقارئ كيف ملكت ناصية البلاد بثاقب رأيها وصائب حكمتها، وكيف حفظتها لابن أخيها وربيعها وكيف هيّأته وأعدته للملك إلى غير ذلك من العظائم التي يندر العثور عليها في حياة مشاهير الرجال.

47. المؤنس ص 81.

48. التحقيق أنها دفنت أولا بالمهدية ثم نقلت إلى المنستير إلى مقبرة امراء صنهاجة المعروفة بمقبرة السيّدة نسبة إلى هذه الأميرة وهي وسط البلد المذكور لحدّ الآن بالقرب من الرباط الكبير.

49. وما يجعل بنا ذكره أيضا من مآثر هذه السيّدة أنها أوقفت كتبا قيّمة على جامع القيروان من جملتها مصحف شريف في نهاية الجمال من حيث تنسيق الخط وتزويق رفوفه البديعة ومن حسن حظّي أن وقفت بمكتبة جامع عقبة على ورقة بها تحبّسها لهذه الخاتمة المباركة ونصه : «حبست السيّدة الجليّة أمّ ملال، وفقها الله، هذا المصحف الجامع لكتاب الله العظيم على جامع مدينة القيروان افريقية، لوجه الله الكريم وتعرّضا لجزيل ثوابه، وكان هذا الحبس على يد القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن هاشم» عاملها الله بخالص نيتها وبلغها في الدار الآخرة أمنيّتها.

أمّ العلو

هي الأميرة (أمّ العلو) بنت نصير الدولة باديس وأخت المعز تربت في قصور صنهاجة بين المنصورية والمهدية في كفالة عمّتها السيّدة أمّ ملال المتقدمة وتغذّت من لبّان تربيتها الراقية. ثمّ أنها لما بلغت من العمر السابعة عشر - وقد ماتت أمّ ملال - زوّجها أخوها ووليها من ابن عمّه الأمير عبد الله بن حماد الصنهاجي صاحب المغرب الأوسط فزفّت إليه في أبهة عظيمة نكتفي في وصفها بما رواه المؤرخ ابن العذاري، قال⁵⁰:

«في رجب من سنة 415 تزوجت السيّدة (أمّ العلو) بنت نصير الدولة باديس أخت شرف الدولة المعز. فلما كان يوم الأربعاء من شعبان المكرم زيّن الإيوان العظيم للسيّدة الجليلة (أمّ العلو) ودخل الناس خاصّة وعامة فنظروا من صنوف الجواهر والأسلاك والأمتعة النفيسة وأواني الذهب والفضة ما لم يعلم مثله ولا سمع لأحد الملوك قبله. قال أبو اسحاق ابراهيم الرقيق: فيهر عيون الخلق حال ما عاينوه وأبهتهم عظيم ما شاهدوه، وحمل جميع ذلك إلى الموضع الذي ضربت فيه الأبنية والقباب والأخبية وحمل المهر في عشرة أحمال على عشرة بغال على كل حمل جارية حسناء، وجملته مائة ألف دينار عيّنًا. وذكر بعض حذاق التجار أنّه قوّم ما هو لها فكان زائداً على ألف دينار (أي 35 مليون فرنك ذهباً) وهذا ما لم يرقط لامرأة قبلها بإفريقية، وزفّت العروس في يوم الخميس ومضى بين يديها عبيد أخيها شرف الدولة وأبيها نصير الدولة وجدها عدة العزيز بالله ووجه رجال الدولة. فكان يوماً سارت الركبان بحاسن آثاره، وامتلأت البلدان بعجائب أخباره.»

وربما يتبادر للذهن أنّ ما ذكره المؤرخون فيه مبالغة، لكن الحال والحقيقة يؤدیان صحّة هذا النقل، فإنّ الباحث في التاريخ عن الرقي الاجتماعي في ذلك العصر يرى أنّ ما أنفق المعز على مأمّ عمته وتجهيز أخته كان مناسباً لثروة البلاد وقتئذ لكثرة الأموال في الناس وتوفّر وسائل

50. البيان المغرب ج 1 ص 284.



الارتزاق وامتداد البسط والرخاء بارتقاء الفلاحة ورواج التجارة وانتشار المصنوعات الافريقية في مشارق الأقطار ومغاربها. ولا شك أن وفرة المال في الأمة تستوجب وفرة مداخيل الدولة فتتوسع على الأمراء ومن حولهم دائرة الترف والبذخ العائد صرفها في الآخرة على عموم الطبقات من التجار وأرباب الصنائع وغير ذلك.

ولنعد لأخبار هذه الأميرة، فإنها بعد أن تزوجت من ابن عمها انتقلت إلى سكنى (القلعة) عاصمة الإمارة الحمادية فأقامت في أرغد عيش إلى أن عزم أخوها على محاربة قبائل زناتة الطاعنين بأرض طرابلس قد خالفوا عليه وأظهروا الفساد والعناد. فاستعان المعز بابن عمه وصهره على قتالهم وتم الأمر على ذلك.

وقدّم عبد الله بن حماد في جيشه وصحبته قرينته الجليلة. وبعد أن استراحا أياما بالقيروان «زحف المعز - في عام 430- إلى زناتة بجهات طرابلس فبرزوا اليه وهزموه وقتلوا عبد الله بن حماد الصنهاجي وسبوا أخته (أم العلو) بنت باديس ثم أطلقوها بعد حين إلى أخيها⁵¹.

فانظر - يرباك الله - كيف كانت السيّدات العربيات يصحبن رجالهنّ في ميادين القتال والطعن وكيف يشاركن في الابتلاء والأسر ويقابلن الشقاء والعناء بالصبر!

فما أبعد هذه التربية من تربية بناتنا اليوم⁵²، ولكن هي ذي الحقيقة.

شيمٌ مرّت الليالي عليها والليالي قليلة الإنصاف

51. ما هو بين هلالين منقول من لفظ ابن خلدون - طبع الجزائر ج 2 ص 59.

52. عثرت بمكتبة جامع عقبة العتيقة بالقيروان على ورقة رق بخط القاضي عبد الرحمن ابن محمد بن هاشم. وهو قاضي المعز بن باديس. مكتوب بها توقيف هذه الأميرة لمصحف شريف على أحد مساجد القيروان ونص ما بالورقة: «ما أمرت بتجبيسه السيّد أم العلو حرسها الله على مسجد أبي عبد المطلب بباب سلم ابتغاء ثواب الله العظيم وكفى بالله شهيدا». ومن هنا يتضح لك أن توقيف الكتب ولا سيما المصاحف كان سنة متبعة عند الأميرات الصنهاجيات كما رأيته في ترجمة أم ملال وستراه في أخبار فاطمة الحاضنة.

فاطمة الحاضنة

احتوى بلاط ذوي زيري الصنهاجيين على حشم عديد يتألف من جوار شرقيات، وحظايا أعجميات، ساقهنّ إلى قصور القيروان حسن السمعة والصيت البعيد.

من بين العقائل اللاتي ضمنهن هذا الحشم العديد مخدّرة موصوفة بجمال الهيئة والأدب، امتازت على جوارى القصر بسعة الإدراك وعلو الهمة، وهي (فاطمة) المشهورة بالحاضنة. أصل هذه المرأة من بلاد النصارى⁵³ أسرها بعض غزاة البحر وسيقت إلى المهدية ثم إلى القيروان على عهد الأمير المنصور الصنهاجي فاقتناها مع بعض الربانة وأدخلها حرمة. ولما رأى عليها من مخاصل التدبير والفكر اختصّها لحضانة ابنه باديس، ومن ذلك الحين عُرفت باسم (فاطمة الحاضنة).

وقد أسلمت ورسخت عقيدتها وعز جانبها، حتّى اندمجت في صنف الأميرات الصنهاجيات وصارت بينهن محل الرعاية والتكريم.

ولما استتب الأمر إلى المعز بن باديس رفع مقامها وزاد في احترامها تعظيماً لحاضنة أبيه ومؤدبته فنالت فاطمة في مدّته حظوة كبيرة لصدق سريرتها وأمانتها وعفتها - والإنسان أسير الإحسان - وقد اشتهرت فاطمة بالفضيلة والورع وفعل البرّ حتّى باهت بأعمالها الخيريّة كبار رجال ونساء عصرها.

يكفيها فخراً وقفها على جامع عقبة بالقيروان الكُتُب النفيسة، والمؤلفات النادرة التي مازال بعضها يشاهد ليومنا هذا، بالرغم من توالي السنين وتعاقب الفتن والتخريب والنهب، فمن يزر الخزينة العتيقة بجامع عقبة يرّ بها رفوفاً مقنطرة من المصاحف المخطوطة بالذهب المذاب

53. معالم الإيمان ج 3 ص 175.



المكتوبة بالخط الكوفي العجيب وقد رقم بعضها على القبطي اللازوردي البديع. ومن جملة ذلك مصحف شريف متناهي الحجم مرسوم بآخره نص التحبيس وصورته.

«بسم الله الرحمن الرحيم. قالت فاطمة الحاضنة، حاضنة أبي مناد باديس، حبست هذا المصحف بجامع مدينة القيروان، رجاء ثواب الله وابتغاء مرضاته على يد القاضي عبد الرحمن بن القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم نضر الله وجهه، أمين رب العالمين، وذلك في شهر رمضان من سنة عشر وأربعمائة، فرحم الله من قرأ ودعا لهم ولجماعة المسلمين بالرحمة والمغفرة. وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وسلّم تسليماً».

وبالوجه الثاني من الورقة ما نصّه :

«بسم الله الرحمن الرحيم. كتب هذا المصحف وشكله ورسمه وذهبه وجلده علي بن أحمد الوراق للحاضنة الجليلة حفظها الله على يديّ (درة الكاتبة) سلمها الله. فرحم الله من قرأ فيه ودعا لهما بالرحمة والمغفرة والنجاة من عذاب النار. أمين يا رب العالمين».

وقد جعلت المحبسة رحمها الله المصحف المشار إليه في صندوق من الخشب الثمين مستطيل الشكل رُسِمَتْ عليه هذه العبارة : «حُبِسَ علي جامع مدينة القيروان مما أمرت به فاطمة حاضنة باديس في سنة عشرة وأربعمائة وابتغاء وجه الله الكريم وطلب مرضاته» وهذا الصندوق موجود ببيت صلاة المسجد المذكور لحد الآن.

ولم تزل فاطمة معززة مكرّمة، والمعزّ يبالغ في الانعام عليها ويعاضد مساعيها إلى أن ماتت - في حدود سنة 420 - ودفنت بما يليق بمثلها تقبل الباري تعالى عملها بالإحسان، وأغدق عليها من فيضه الواسع سحائب الرحمة والرضوان.

أم يوسف

واسمها (زليخاء) حليمة الأمير المعز بن باديس. كانت من شهرات نساء عصرها حسناً وجمالاً وأوفرهنّ عقلاً وكمالاً.

قال ابن أبي دينار⁵⁴. صنع المعز وليمة لعرسه بأم يوسف - سنة 413 - لم يكن مثلها لأحد في بلاد المغرب، ولما بدأ بالحركة للعرس نصبت القباب خارج المدينة ونشر ما هياً من الأثاث والثياب. وحضر من آلات الملاهي والطرب ما لا يوصف، وبنيت له مصانع وقصور لم يُر مثلاً، وصنع إيوانه الأعظم وبنى الخورنق تشبيهاً بخورنق النعمان بن المنذر بالعراق.

فكانت أم يوسف زليخاء أصدق زوجة لأكرم أمير. وقد وجد بها المعز وجداً شديداً حتى كان لا يستطيع فراقها سفرًا أو حضرًا.

وفي عام 425 نزل بإفريقية وباء جارف أصاب الحواضر والبوادي، وحصل منه فناء كبير في السكّان، وعجزت عن ردّه وهمّة المدبرين، فكان من جميل عمل (أم يوسف) وكرم خصالها أن تصدّقت على موتى الفقراء والمعوزين بستين ألف كفن احتساباً لوجه الله تعالى⁵⁵.

فأنت ترى أن ما تقوم به اليوم ميسورات الإفرج من التبرّع بالملابس والثياب على جرحى الحرب - لا سيما الأوروبية الكبرى الجارية - وعلى مرضى المستشفيات والملاجئ تخفيفاً لوطأة الآلام البشرية له أصل متين وأثر حكيم في الهيئة الإسلامية بهذه البلاد.

على أنّ عمل الأميرة زليخاء إنّما كان الباعث عليه ابتغاء مرضاة الله بينما إحسان المتبرعات الغربيات اليوم هو مؤسس على دعامة حبّ الوطن وإيثار جنس وشتان بين الصنيين. لكن لكل عمله، ولكل إمرة من دهره ما تعوداً.

54. كتاب المؤنس ص 82.

55. كتاب السير للشماخي طبع مصر سنة 1311 ص 415.



بلاّرة

الأميرة (بلاّرة) هي بنت تميم بن المعز بن باديس. كان مولدها بالمهدية مدّة استيلاء أبيها. وهي العاصمة الثانية التي انتقل إليها تحت افريقية بعد القيروان.

عني تميم بتربية ابنته تربية عربية متينة مؤسسة على العلم والدين. وكان أبوها معتنياً بالعلم مقدراً لفائدة التعليم. وهو من فحول الشعراء المجيدين المشار إليهم بالبنان في أفانين البلاغة وحسن البيان. ولا غرو إذن أن يعتني بتربية ابنته تربية عالية تضارع تربيته وعلمه.

ولما شبت بلاّرة وتكامل تهذيبها وحسن تأديبها رغب الأمراء في خطبتها ومن أحادهم ابن عمها (الناصر بن عباس) الصنهاجي صاحب قلعة بني حماد وبجاية، وكانت إذ ذاك إمارة مستقلة فقبل تميم من ابن عمها الخطاب بالإيجاب، وأمهرها الناصر ثلاثين ألف دينار ذهباً - نحو مليون فرنك - فأخذ منه تميم ديناراً واحداً ورد الباقي⁵⁶.

وفي سنة 470 أدرجت العروس من المهدية في عسكر كثيف ومعها من الجهاز والحليّ والنفائس ما لا يحد ولا يعدّ، وزفت الى الناصر في أبهة يقصر دونها الوصف. ولما آوى إليها الناصر ورأى من عقلها وعلو همتها وكرم شمائلها ملكت شغاف قلبه وأحبها حباً شديداً وابتنى لها بقلعة بني حماد وبجاية قصوراً شامخة وأحاط بها الحدائق الأنيقة فيها الروح والريحان، ومن كل فاكهة زوجان، ومن تحتها الأنهار الدافقة، والأزهار الشائقة، وجلب إليها كل ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، إكراماً واحتفاءً بزوجته الأميرة بلاّرة. واختصّت الأميرة لإقامتها إواناً بقلعة بين حماد اشتهر لذلك باسمها وهو (قصر بلاّرة) وقد محا اليوم محاسنه الزمان، وطمس رسمه الحدّثان. وفي خرابه يقول الشاعر الصنهاجي أبو عبد الله محمد بن حمّاد نادياً تلك الأطلال⁵⁷:

56. الكامل لابن الأثير ج 10 ص 44.

57. أعمال الاعلام ص 38.





إنَّ العروسين لا رسمٌ ولا طللُ
وقصر بلاّرة أودى الزمان به
قصر الخلافة أين القصر من خرب
وليس يبهجني شيءٌ أسرّ به
وما روى الكوكب العلوي معتصم
وإن في القصر قصر الملك معتبرًا
كرجعك الطرف كانت كل أبرة
فانظر تر ليس إلاّ السهل والجبلُ
فأين ما شاد منها السّادة الأول
غير اللّجين وفي أرحابها زحل
من بعد أن نهجت بالمنهج السبل
وقد عرى الكوكب التغير والندل
لمن تغرّ به الأيام والدول
فما تراه كذلك العمر والأجل

والقصيدة طويلة اقتصرنا منها على ما نقلناه. ورزق الناصر من الأميرة بلاّرة بأمرأة نبلاء، وكان أطراهم ذكرًا وأعلاهم كعبًا المنصور بن الناصر⁵⁸، وعاشت بلاّرة محظية معززة أيام زوجها الناصر وأما من أيام ابنها المنصور ولحقت بربها على عهده، والبقاء لله وحده.

58. البيان المغرب ج 1 ص 309.



خدوج الرُصفية

بالساحل الشرقي من القطر التونسي - في جوهاد لطيف التقوير - كان مرسى صغير يعرف باسم (رُصفَة) تلتجى إليه بعض فلك صيد السمك في زمن الشتاء إذا تلاطمت أمواج البحر المتوسط وهاجت رياحه العاصفة.

وفي أواسط القرن الرابع للهجرة نبغت في هذا المرفأ أدبية فصيحة من عائلة عربية كان قدم أوائلها بعد الفتح الإسلامي. ولسوء الحظ لم يحصل لنا من العلم بحال هذه إلا شيء قليل رواه شاعر قطرنا ابن رشيق في كتابه «الأتمودج» حيث قال⁵⁹ :

«هي خديجة بنت أحمد بن كلثوم، المعافري وخدوج لقب لها، شاعرة حاذقة مشهورة، لها ترسل لا يقع مثله إلا لحذاق المترسلين» وهي لعمرى شهادة ذات قيمة معتبرة.

وغاية ما نعلمه من حياتها أن شاباً ظريفاً مشتهراً بالشعر - أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله - تعلق بها تعلقاً شديداً وقد مال قلب خدوج اليه أيضاً لأدبه وكياسته، فجاشت قريحتها ونبع ذوقها السليم بالنظم الرقيق الجيد، وكان بعض الوشاة المغرضين تصدى لغرامهما فكدر صفوه، فمن شعرها في ذلك.

فرّقوا بيننا فلما اجتمعنا مرّقونا بالزور والبّهتان
ما أرى فعلهم بنا اليوم إلا مثل فعل الشيطان بالإنسان
لَهَفَ نفسي عليك بل لهف نفسي منك ان بُنتَ يا أبا مروان

ومن هذه الأبيات يتضح أن أمر خدوج وحببها ذاع خبره بين أهل رصفه - شأن الأرياف في كل عصر ومصر - فغار لذلك أخوتها وفرقوا بين العاشقين، ولم يقبل لأبي مروان طلبه يد

59. وعن الأتمودج نقل عماد الدين الاصفهاني في كتابه خريدة القصر (خط) وياقوت الحموي في معجم البلدان : لفظ رصفه.



خدّوج بل أنه أبعد منها ورد عنها، وإلى هذا الحادث المؤلم أشارت في كتاب أرسلته إلى أخيها ختمته بقولها :

أأخي الكبير وسيدي ورئيسي ما بال حظّي منك حظ بخيس ؟
أبغني رضاك بطاعة مقرونة عندي بطاعة ربّي القدوس
يا سيدي ما هكذا حكم النّهى حق الرئيس الرفق بالمرؤوس
وإذا رضيت لي الهوان رضيته ورأيت ثوب الذلّ خير لبّوس

فأنت ترى العاطفة النسائيّة تجلّل هذا الشعر التزيه ومن قرأه ولم يدر قائله علم أنّه شعر أنسة في نهاية التربية تستنزل به العطف من أخيها الأكبر وهو وليها.

ولخدّوج مع أبي مروان نواذر أشعار كثيرة عليها طلاوة من الأدب ومسحة العفاف⁶⁰.

زحفة الأعراب

بينما أهل افريقية في هذا الرغد من العيش يتمتعون بما أنعم الله عليهم من البسط ويستنمون ذرى الحضارة، ويسيرون سيرهم الحثيث في الرقي، والدنيا مقبلة عليهم إذ صاح بهم صائح الخراب فاستوقفهم عن سيرهم، وقذف بهم في لجيّ الفتن والهلاك.

والسبب في ذلك وحشة حصلت بين الأمراء الصنهاجيين وخلفاء مصر الفاطميين. فكان من كيد هؤلاء الآخرين أن سرّحوا على ملك صنهاجة أجنالاف عشائر بدوية وأحلاف فوضى

60. المشهور عند علماء الآثار أن مدينة رصفة المذكورة هنا هي المسماة قديما عند القرطاجنيين والرومان والروم باسم Ruspea وأن مكانها هو عين موضع بلد (الشابة) الآن الواقعة على رأس قبودية ما بين المهدية وصفاقس، ومن أغرب ما ألاحظ أنه لحد اليوم بقرب رأس قبودية المتقدم انقاض محرس قدم ضخّم البناء عربي الهيئة به منار عال يكشف منه عرض البحر يعرف إلى وقتنا باسم (برج خديجة) - فلا يبعد أن تكون هذه التسمية نسبة إلى شاعرتها الرصفية ذائعة الصيت في زمانها، وربما كان أيضا نزل أهلها المعافريون قريبا من المحرس فاشتهر لذلك باسم خديجة النابغة، ونظير هذا كثير في تسمية المعامل والأبراج والحصون، وفوق كل ذي علم عليم.



وهمجية من وراء النيل وهي قبائل هلال وسليم وزغبه فنزلوا إلى افريقية في عدد يتجاوز مئات الآلاف، واجتازوا تخومها وهتكوا سياج منعها فقلبوا سافلها على أعلاها وجعلوا تمدنها أثراً بعد عين.

قال ابن خلدون⁶¹: «وجاء الأعراب فدخلوا البلد واستباحوه، واكتسحوا المكاسب وخربوا المباني وعاثوا في مساكنها، وطمسوا من الحسن والرونق معالمها، واستصفوا ما كل لآل بُكين الصنهاجيين في قصورها، وشملوا بالعيث والنهب سائر من فيها. وتفرق أهلها في الأقطار، فعظمت الرزية واستشرى الداء وأعضل الخطب واضطرب أمر افريقية وخرب عمرانها وفسدت سابقتها... وعاجوا على ما هنالك من الأمصار، وأزعجوا ساكنها، وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعاً صفصفاً أفقر من بلاد الجن، وأوحش من جوف العير... وسارت قبائل دبّاب وعوف والزغب وجميع بطون هلال إلى إفريقية كالجراد المنتشر لا يبرون بشيء إلا أتوا عليه حتى وصلوا إلى القيروان سنة 449». فاغتصبوها وأتوا على عمرانها وسعادة سكانها، والسعادة الخالصة من شوائب الزمان وعواقب الحدثان عزيز في الأرض مقامها:

وإذا نظرت إلى البلاد وجدتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

61. ابن خلدون - طبع الجزائر ج 1 ص 20 وما بعدها.



الجازية الهلالية

كان في هؤلاء الأعراب لعهد دخولهم إفريقية رجالات مذكورون، وكان من أشهرهم حسن بن سرحان وأخوه بدر واختهما (الجازية) وهم ينسبون في دريد من هلال.

ولهؤلاء الهلاليين في الحكاية عن دخولهم إلى إفريقية طُرق في الخبر غريبة: يزعمون أن الشريف بن هاشم كان صاحب الحجاز ويسمونه شكر بن أبي الفتوح، وأنه أصهر إلى حسن بن سرحان في أخته (الجازية) فزوجه إياها وولدت منه أولاداً، وأنه حدث بينهم وبين الشريف مغاضبة وفتنة وأجمعوا على الرحلة عن نجد إلى إفريقية وتحيلوا عليه في استرجاع الجازية فطلبت منه زيارة قومها فأزارها إياهم وخرج بها إلى أحيائهم، فارتحلوا به وبها وكنتموا رحلتهم عنه، وموهوا عليه بأنهم يباكرون به للصيد والقنص ويرجعون به إلى بيوتهم بعد، فلم يشعر بالرحلة إلى أن فارق موضع ملكه وصار إلى حيث لا يملك أمرها عليهم، ففارقوه ورّجعه إلى مكانه وبين جوانحه من حبها داء دخيل، وأن الجازية بعد ذلك كلفت به بمثل كلفه.

والهلاليون متفقون على الخبر عن حال الجازية والشريف خلفاً عن سلف وجيلاً عن جيل، ويكاد القادح فيها والمستريب في أمرها أن يُرمَى عندهم بالجنون والجهل المفرط لتواترها بينهم.

ومن مزاعمهم أن (الجازية) لما صاروا إلى إفريقية وفارقت الشريف خلفه عليها منهم (ماضي بن مقرّب) من رجالات دريد⁶².

وكان لدريد - قبيلة الجازية - بين هلال السيادة والمنزلة الرفيعة، ومظاعن دريد اليوم بأعمال باجة وماطر والكاف وتبرسق⁶³. وكان لحسن بن سرحان عند دخولهم إلى إفريقية الرئاسة على جميع بطون الأعراب. يقول بعض شعرائهم يفخر بقومه :

62. اقتطفنا هذا الفصل من ابن خلدون وكان من أعلم أهل زمانه بأخبار هؤلاء الهلاليين وحكاياتهم وأشعارهم - ج 1 ص 21 طبع الجزائر.

63. أقول أن مشاهير النسابين من أعرابنا يقسمون اليوم قبيلة دريد إلى أربعة بطون (عشاير) كبيرة وهي : أولاد مناع، أولاد جوين، بين رزق، أولاد عرفة، ويجعلون الجازية من أولاد مناع. وقد يذكر أعيان هذا البطن أنتسابهم إليها إلى الآن، ولا مشاحة في الانساب وأهل مكة أدري بشعائنها. وعلى كل حال فلم يزل عرب دريد أهل نخوة عربية معروفة.



تَحْنُ إِلَى أوطان صبرة ناقتي لكن مع جملة دريد حوَّارها
دريد سُراة البدو للجدد منقَع كما كل أرض منقع الماء خيَّارها
وهم عربوا الأعراب حتَّى تعرَّفت بطُرق المعالي ما ينفى قصارها
وتركوا طريق البَارمين ثنيةً وقد كان ما يقوى المطايا حجارها

ومن تلك العصور الخالية اعتاد سكان القطر التونسي - حضرهم وبدوهم - ضرب المثل بصورة الجازية في وصف الجمال التام، فمتى أرادوا تشبيه امرأة جمعت بين الحسن الباهر والعقل الوافر هي (الجازية) في الكمال والتفكير وهي (الجازية) في الرأي والتدبير، وقد يتناقلون الحكايات الظريفة عنها ما يعفي عن أخبار مجنون ليلى وكثير عزة، ويروون لها من الأشعار المنسجمة في الموعظة والنصح ما يملأ المجلدات لو جُمع.

تعلّق بمحفوظنا من ذلك قولها تخاطب ابنها :

لا خير في الطفل الصغير إذا نشأ وكان رقاد كثير همائدَه
إذا ما قَضَ الشرق والغرب والسَّوا وقطَّع بين الشنَّايَا مزاوَدَه
إما يموت ويرتاح من عيشة الرَّدَى وإلا يروِّح كما الصقر مالي مخالفه

وكلامها في معنى الحكمة والاعتبار كثير متداول لا سيما بين ساكني الخيام، وهو سَمَر الحي وفكاهة المجالس.

المستعمرات العربية

تسنى لمسلمي افريقية أوائل القرن الثالث أن يستولوا على غالب جزائر البحر المتوسط الغربية كصقلية، ومالطة وقوصرة (المسماة بنطلاوية الآن) وغير ذلك.

وما كاد الجيش الفاتح يتم أعماله الحربية حتَّى استعمر سكان الساحل التونسي تلك الجزائر ونقلوا إليها طُرق تمدّنهم وعوائدهم وأخلاقهم ولسانهم العربي.



دام مُقام الافريقيين بتلك المستعمرات الى أواسط القرن السابع⁶⁴ ولم تزل للدولة هناك آثار مشاهدة وبقايا خالدة تدل على قوة سلطانهم وتمكن عمرانهم من الأمم والبلاد الخاضعة لحكمهم. فهذا الشعب المالطي المسيحي النحلة مازال يتكلم بلهجة عربية المأخذ والأصل وإن طرأت عليها طوارق الدخيل والتحريف⁶⁵. وهذه اللهجة الصقلية القوصرية تشتمل على المئين من الألفاظ العربية علاوة على ما احتوته الجزيرتان من المعالم القائمة الذات⁶⁶ والعوائد الإسلامية المنتحلة من ذلك الزمان الغابر.

64. راجع تاريخ ابن خلدون ج 1 ص 409 طبع الجزائر.

65. راجع كتاب الواسطة في اخبار مالطة للشدياق ص 56 - وكتاب صفوة الاعتبار لبيرم ج 4 ص 71 وما بعدها.

66. تاريخ صقلية على عهد المسلمين للمؤلف (باللغة الفرنسية) طبع تونس سنة 1905 وكتاب «ذكرى مالطة العربية» للمؤلف أيضا، لم يطبع بعد.

ميمونة الهذليّة

الزائرون من أبناء تونس للالطة يعدون بالألوف، وقلّ منهم من بحث عن آثار أجداده بها، ولو تنبّه من دخل منهم متحفها لشاهد من بين محفوظاته لوحاً رخامياً منخوطاً بالقلم الكوفي المزهر يبهج الناظرين لطفاً وجمالاً ويهيج لهم العبرة والأذكار.

ساقني القدر للاطلاع على ذلك اللوح الجميل المعثور عليه (بالمدينة) عاصمة جزيرة مالطة في الدور الإسلامي، قبل أن تنتقل إلى (لافالطة) تحتها الحالي، وهذا ما قرأت عليه⁶⁷ : (بأطراف اللوح).

يَا مَنْ رَأَى الْقَبْرَ أَنِّي قَدْ بُلِيتُ بِهِ وَالتُّرْبَ غَيْرَ⁶⁸ أَجْفَانِي وَعَآمَاقِي
فِي مَضْجَعِي وَمَقَامِي فِي الْبَلَى عِبْرٌ وَفِي نَشُورِي إِذَا مَا جِئْتُ⁶⁹ خَلَاقِي
انْظُرْ بَعِينِكَ⁷⁰ هَلْ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَاقٍ أَوْ دَافِعَ الْمَوْتِ أَوْ لِلْمَوْتِ مِنْ رَاقِي
الْمَوْتُ أَخْرَجَنِي قَصْرًا فَيَا أَسْفِي لَمْ يُنْجِنِي⁷¹ مِنْهُ أَبْوَابِي وَأَغْلَاقِي⁷²
وَصُرْتُ رَهْنًا بِمَا قَدَّمْتُ مِنْ عَمَلٍ مَحْصَى عَلَيَّ وَمَا مِنْ خَلْفَتِهِ⁷³ بَاقِي

وفي وسط محراب اللوح) : «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا، لله العزة والبقاء وعلى خلقه كتب الفناء، ولكم في رسول الله أسوة

67. أنبه القارئ أن المرحوم أحمد فارس الشدياق كان قرأ قبلي هذه الرخامة ونشر صورتها وترجمتها في المجلة الآسيوية الفرنسية سنة 1847 ص 437. بيد أنه أورد بعض الألفاظ على غير معناها فيما أعتقد ولذلك نصصت هنا على اختلاف الروايتين.

68. عبر بدل غير.

69. إذا ما خط عوض إذا ما جئت.

70. بقلبك بدل بعينيك.

71. ينجني عوض تنجني.

72. ابواني وأغلاقي بدل ابوابي وأغلاقي.

73. وما من خلفه بدل ما خلفته.





حسنة، هذا قبر ميمونة بنت حسان بن علي الهذلي وغد ابن السوسي⁷⁴ توفيت رحمة الله عليها يوم الخميس السادس عشر من شهر شعبان الكائن في سنة تسع وستين وخمسائة. وهي تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

فأنت ترى هذه المهاجرة الإفريقية كيف تتأوه على فقدان عز مسكنها المزخرف بمالطة، وكيف تتحسر مما يؤول إليه جمالها الزاهر لما يضم القبر عليها جوانبه المظلمة ويملاً ترابه عينيها الدعاوين.

لكن لتطمئن روح تلك الأنسة الطاهرة فان تذكّرها لا يضمحل أبداً ما دام ذلك اللوح الباهر محفوظاً باحترام، فهو لعمرى دعامه من دعائم السيادة العربية في تلك الجزيرة !

ما مات من كان حياً ذكره أبداً وفي الدفاتر قد تتلى صنائعه

74. الوغد هو النائب أو ناظر الأملاك، والسوسي نسبة إلى مدينة سوسة بالساحل التونسي، ولا يخفى أنه من دار صناعة هذه المدينة خرج الأسطول الإفريقي مدة الأغلبة لفتح جزائر صقلية ومالطة وقوصرة.







الدُّور الحَفَظِي





تمهيد

على دارس رسم الإمارات الصنهاجية أسس بنو حفص. أوائل القرن السابع - مملكة متسعة الأكناف تمتد أطرافها من الجزائر إلى آخر طرابلس الغرب.

وقد جعلوا حاضرة تونس قلباً لها، فاتخذوها قاعدة لإدارة شؤون ملكهم وتختاً لسلطانهم العظيم، ولم تلبث تونس إلا قليلاً حتى صارت محط رحال تجار المشرق ومهاجري الأندلس، وفيهم الطبيب والفقيه والمهندس والأديب وغير هؤلاء من أرباب الصنائع وأصحاب الحرف، فتدفق عمران تونس وعززت حضارتها وراجت بها سوق العلم والأدب بسبب انتشار التعليم للبنين والبنات على السواء خصوصاً وقد أنشئت من أول الدولة المعاهد العلمية.

وكان للأميرات الحفصيات الحظّ الأوفر والسعي الأكبر في تشييد المدارس وتجهيزها بالأوقاف الطائلة وخزائن الكتب الضخمة. وسنقص عليك من نبأهنّ أثراً يسيراً.

فرجة النساء

يعود الفضل في الحركة التمديدية والنهضة العلمية الظاهرة في هذا الدور لأفراد من الأسرة المالكة الحفصية، توفرت فيهم شروط اللياقة لا سيما في مبدأ الدولة - والدول تزهو في أوائلها.

ناهيك ما أنشأه المستنصر بالله الأول - المتولي سنة 647 - من القصور الشامخة والبساتين الشائقة (كأبي فهر) و (راس الطابية) لنزهة حشمه وفرجة حرمه. ولقد أحسن مؤرخنا الكبير ابن خلدون في وصفه لبعض تلك المصانع حيث قال⁷⁵ :

«واتخذ المستنصر بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف (بأبي فهر) يشتمل على جنّات معروشات وغير معروشات، اغترس فيها شجرة من كل فاكهة من أصناف التين والرمان والنخيل والأعناب وسائر الفواكه وأصناف الشجر، ونضد كل صنف منها في دوحه حتى

75. ابن خلدون طبع الجزائر ج 1 ص 412.



لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البري، وسمي دَوْحَ هذه (بالشَّعراء) واتخذ وسطها البساتين والرياضات بالمصانع والحدائق وشجر النور والنزه من الليم والنارنج والسرور والريحان وشجر الياسمين والخيري والنيلو فروا مثاله، وجعل الرياض رَوْضًا فسيح الساحة وصنع فيه للماء حائزًا من عداد البحور، جلب إليه الماء في القناة القديمة التي كانت ما بين عيون زغوان وقرطاجنة، متى تنبعث من فوهة عظيمة إلى صهريج عميق المهوى رصيف البناء متباعد الأقطار مربع الفناء مجلل بالكلس فيفهب حوضه وتضطرب أمواجه تطرقه الحضايا عن السعي بشاطئه لبعده مداده فيركب في الجواري المنشآت تَبَجَّه فيتبارى بهنّ تباري الفتح، ومثلت بطرفي هذا الصهريج قُبَّتَانِ متقابلتان كبيرًا وصغيرًا على أعمدة المرمر، مشيدة جوانبها بالرخام المنجد، ورُفعت سقفها من الخشب المقدر بالصنائع المحكمة والأشكال المنمقة إلى ما اشتمل عليه هذا الرياض من المقاصير والأواوين والحوائر والقصور غُرفًا من فوقها غُرف تجري من تحتها الأنهار.

«ثم وصل المستنصر ما بين قصوره ورياض (رأس الطابية) بحائطين ممتدين يحوزان عرض العشرة أذرع، يحتجب به الحرم في خروجهنّ إلى تلك البساتين حتى لا تقع العيون عليهن، فكان ذلك مصنعًا فخماً وأثرًا على أيام الدولة خالداً».

مفاخر الملوك

إن كان العفو عند المقدرة، والحلم بعد الغضب، والصفح عقب الانتصار من الخصال الحميدة، والخلال المجيدة، التي يتحلى بها عظماء الرجال، وقروم الأبطال فأحرى بها أن تكون من شيم الملوك وأصحاب السلطان، وكبراء الأئم وذوي الشأن.

عُرف المولى أبو زكرياء الأول - مؤسس الأسرة الحفصية - بأنه نادرة زمانه، وباقعة دهره، ونسيج وحده، وما ذلك إلا لما اتصف به من السجايا الأثيلة، والهمة النبيلة، وقد كان آية في الشهامة، ومكارم الأخلاق وطهارة الأعراق، والتناهي في الحلم، وبوداعته يضرب المثل.

قام هذا الأمير العظيم بالأمر وشؤون إفريقية مضطربة، والفتن مضطربة، والدولة دائلة، والهيبة زائلة، والخلاف ناشب، والأمر ناهب، فشمّر عن ساعد الجدّ فأزال خطوبها، وتلافى كربوها، وضبط أعمالها، وجمع أوصالها، ورتب أجنادها وأقام أوتادها، ونظم عمرانها وأحكم سلطانها،

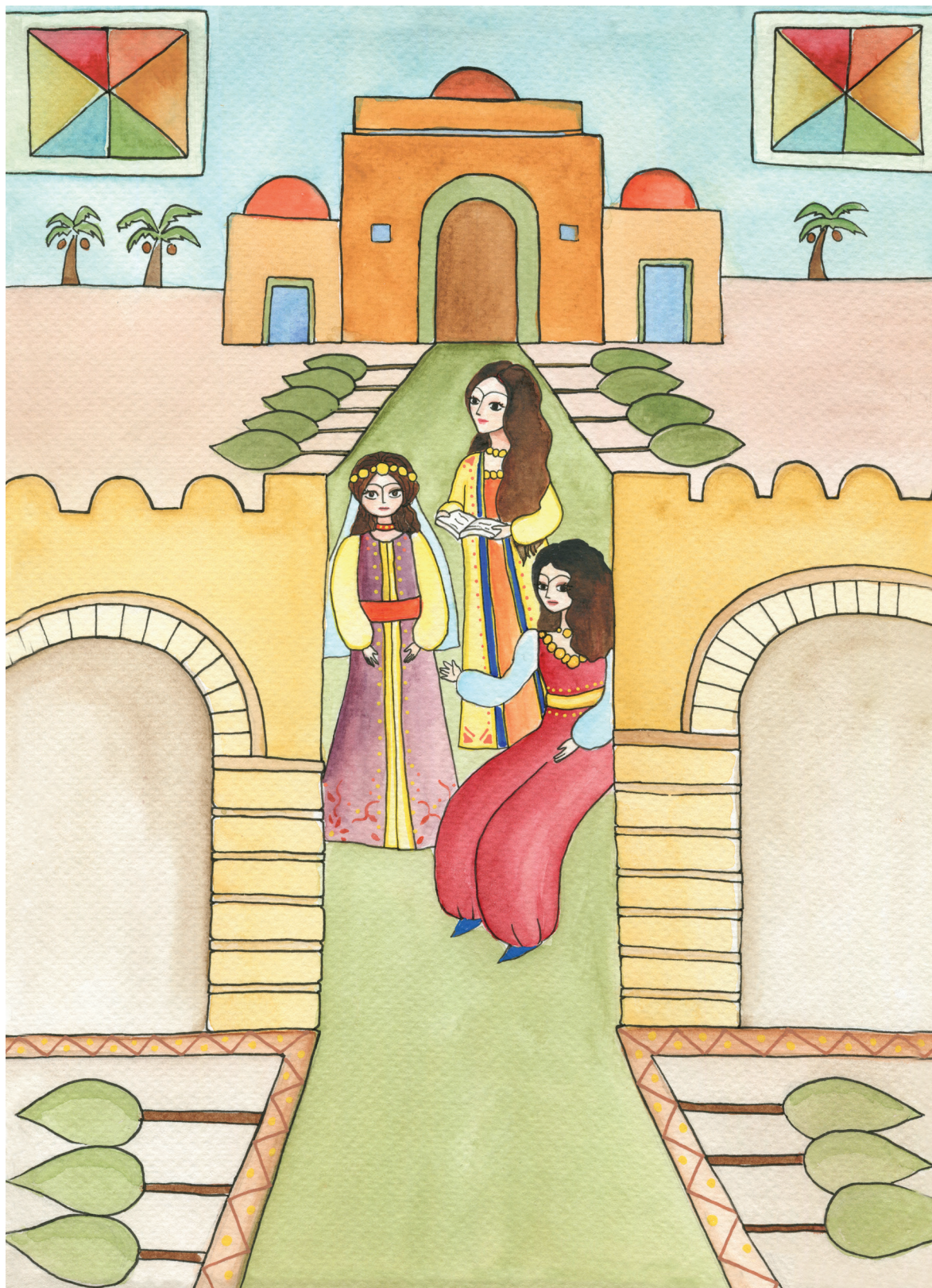
ودعم بنيانها، ووطد أركانها، بعد أن أباد نفوذ أول مقارع له، وأكبر منازع لسلطانه أحد الزعماء من المثلثين المعروف (بيحيى بن غانية) المشتهر «بالميورقي» لاستلائه على الجزائر الشرقية من الأندلس - ميورقة ومنورقة ويابسة -.

كان يحيى هذا من بقايا أمراء المرابطين، فلما تغلب الموحدون على الأندلس استبد الميورقي بتلك الجزر وأخذ يحشد الجيوش والأساطيل لمقاومة خلفاء عبد المؤمن بن علي. ثم أنه تدافعت به مطامعه إلى الترامي على إفريقية فاخترت بعض مراسيها كقابس وصفاقس والمهدية وشاغب الولاية من بني حفص، وقد انحاش إليه أو شاب من الغوغاء ورعاع من الأعراب، ووثب على الحاضرة وحاصرها أياماً معدودات، وبقي يحيى يغدو ويروح بين الثغور الإفريقية يُجبي الإتاوات والضرائب من الضعفاء والمتساكنين، ويذيق الحاضر والبادي أنواعاً من الظلم ويسومهم أصنافاً من العسف والجور، واستمر على ذلك إلى أن جلس الأمير أبو زكرياء على عرش الإمارة فعمد إليه بنفسه واعتزم انزاله من صياصيه ومطاردته عن أعماله، فقصده بجهة قابس - سنة 631 - وبعد معارك عنيفة تمكن من تشريد جموعه، والاستيلاء على ربوعه، والإيقاع بأتباعه من أهل الشر وبطانة السوء، وبذلك انمحت شوائب الفساد، ووقى الله البلاد والعباد، من أهل البغي والعناد.

فلما تمت الهزيمة بمعسكر ابن غانية وانحازت عنه ذخائره وتشتت شمله فرّ ناجياً بنفسه إلى الصحراء الكبرى في قلة من بطانته، وبقي شريداً طريداً ينتاب التلول القاحلة والمفاوز القفرة حتى هلك حتف أنفه في تلك السنة، فانقرض بمهلكه أمر المثلثين من بلاد إفريقية والمغرب والأندلس وانقطع أثره (وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين والأمر كله بيد الله يؤتية من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين).

باب البنات

كان ليحيى بن غانية ثلاث بنات ليس له سواهن من الولد، فلما أحسّ بدنوّ أجله، وأيقن بخيبة أمه، وتلاشى ماله وولده بعد موته أراد أن يأمن على بناته وفلذات كبده من غوائل الدهر وتصاريح الأيام، فسيّرهن من الصحراء إلى عدوه بالأمس وخصمه المبين الأمير أبي زكرياء، التجاءً إلى محاسن شيمه وكرمه، وسوابغ عدله وحلمه، ولما وصلن إلى الحاضرة اقتبلهن الأمير





على الرحب والسعة وأنزلهن منزل الكرامة، أثيرات مغبوطات، فأقمن في ظلّ ظليل، وعيش بليل.

قال العلامة ابن خلدون⁷⁶ : «فأحسن الأمير أبو زكرياء كفالتهم وبنى لهن بحضرة مُلكه داراً لصونهن معروفة لهذا العهد (بقصر البنات) وأقمن تحت جرايته وفي سعة من رزقه مقصورات معضولات لوصاة أبيهن بذلك».

قلت : وكان هذا القصر بالحومة المعروفة اليوم بحومة (باب البنات) من مدينة تونس سُميت بذلك لمجاورة النزل المتقدم المخصص بهن.

أما الأميرات الميورقيات فقد كنّ سريّات النفوس، عاليات الهمم لهن أنفة وشمم، يتهن على الدهر زهوًا وكبرًا توارثتهما عن الإمارة بالرغم من غروبها عن بيتهن. ومما ينقل عن زهوهُن أن ابن عمّ لهن خطب إحداهنّ الى أبي زكرياء، فبعث الأمير قهرمانه قصره تبلغها الخطبة على لسانه وقد جعل ضمن خطابه :

- «هذا ابن عمك وأحق الناس بك، لقرايته منكن وكفاءته لكنّ».

فكان جواب الخطوبة :

- «لو كان لنا ابن عمّ ما كفلنا الأجانب !» - ولم تزده على ذلك كلمة.

فأمسك عنهن أبو زكرياء ولم يتغير لهذه المجابهة العنيفة لما رزقه الله من الحلم وسعة الصدر. بل زاد في إكرامهن، وبالغ في رعايتهن، وقد هلكن عوانس وبلغن من الكبر عُتيًا، ولم يمتنع بحظ من الزواج.

قال ولي الدين ابن خلدون : «أخبرني والدي - رحمه الله - أنه أدرك واحدة منهن أيام صباه في سني العشر والسبعمئة تناهز التسعين من السنين، قال : لقيتها وكانت من أشرف النساء نفسًا، وأسراهن خلقًا، وأزكاهنّ خللاً».

76. كتاب «العبر» ج 1 ص 259 طبع الجزائر.



نشرت القرون على مؤسس الأسرة الحفصية غبار الزوال، وأدرجت أخباره في أكفان التاريخ فلم يبق منها بين أيدينا إلا ذكرى سيرته العطرة، وأثر حلمه الخالد، تتناقلهما الأفواه، وتشهد بفضلله ومواهبه الدفاتر والأقلام، وسيبقى اسمه حياً نامياً على توالي السنوات ما بقيت في مدينة تونس حومة تسمى (باب البنات).

المآثر الخالدة

إن أبهى ما تتجمل به امرأة مما يفوق رونقه قلائد العقيان، والجواهر الحسان عملٌ صالح يخلد لها ذكراً عاطراً على مدى الأيام، وتعاقب العصور، مثال ذلك الأميرة الحفصية أم الخلائف واسمها (عطف) زوج أبي زكرياء الأول ووالدة المستنصر بالله المتقدم الذكر.

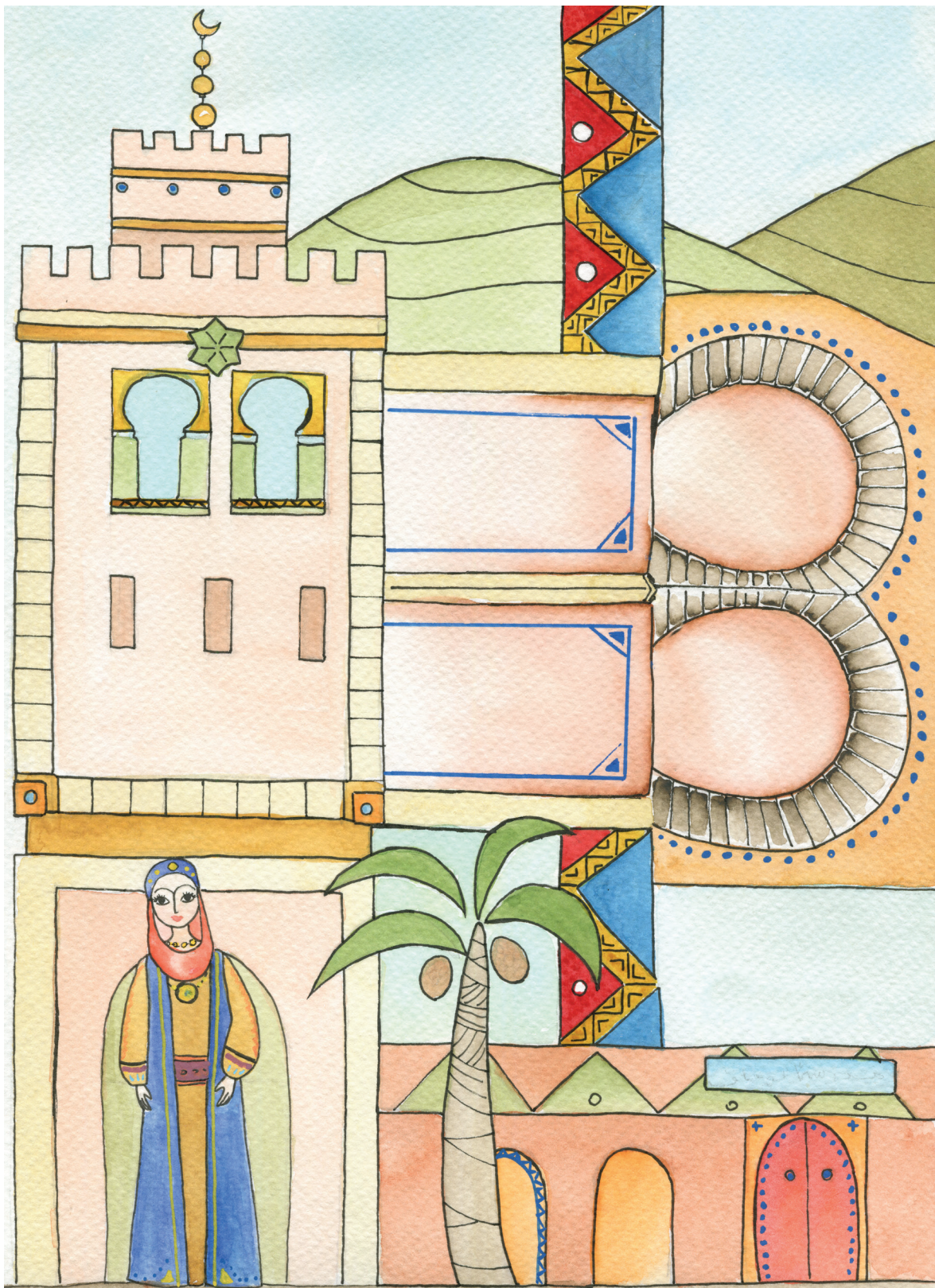
فقد مرت الليالي ومضت، وتداولت الدول وانقرضت وبلت الثياب الفاخرة واندرست، وعمل هذه الأميرة الكريمة باق شاهداً حياً ودليلاً قوياً على صفاء نيتها وجليل مقصدها !

ذلك أنها أنشأت على نفقتها أول معهد علمي مستقل أسس بالحاضرة التونسية وأعني به (المدرسة التوفيقية). ابنت - رحمها الله - هذه المدرسة من خالص مالها فأكملت لوازمها في حدود سنة 650 - ورتبت مصالحتها ابتغاء مرضاة الله واحتساباً لوجهه الكريم - وجعلت حذو المدرسة جامعاً عرف (بجامع توفيق) قبالة زاوية الشيخ الزليجي بربض رياض السعود (رحبة الغنم) الآن⁷⁷.

ولله در شاعر شبيبتنا صديقي الماجد محمد الشاذلي خزندار الذي رصع تاج ذكرى هذه الأميرة التونسية بقوله :

إن غاب شخصك يا ذات الجلال فما غابت مأثرك البيضاء أياديها
في تونس ظهرت أولى المدارس عن يديك تستمطر الرحمة لبانيها
مرت بها الناس أجيالاً وذكرك في أفواها يتفشى بالدعاء فيها

77. ابن خلدون ج 1 : ص 453 - المؤنس ص 128 - وتاريخ ابن أبي الضياف (خط) وجامع توفيق هو المعروف بجامع الهواء.



كما يحفظ التاريخ في بطونه أثرًا حميدًا، وتذكيرًا مجيدًا لما صنعتها الأميرة (فاطمة) أخت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء الملقب بالمتوكل على الله، فإنها أسست مدرسة (عُنُق الجمل). وما كادت تفتح هذه المدرسة أبوابها - في خلال سنة 742 - حتى أقبل عليها طلاب العلم أفواجًا من كل فج عميق⁷⁸ رغبة منهم في اقتناء الفنون من منهلها الصافي وموردها العذب خصوصًا وقد ندبت هذه المؤسسة الفاضلة لإدارتها وللتدريس بها مُسندًا عالمًا وشيخًا كاملاً ألا هو قاضي الجماعة في ذلك العصر محمد بن عبد السلام التونسي⁷⁹. فاغترف الإفريقيون من فيض علمه الهامع كمالات العرفان ولم يزالوا بهذا المعهد منتفعين حتى الآن.

ووضع حجرًا في رأس مدرسة أبقى على قومه من شاهد الهرم

البيئة الحفصية

أي باحث محقق، وأي كاتب مدقق يستطيع أن يرفع لنا الستار، ويكشف الآثار، ويحقق الأخبار، عن أوائل العصر الحفصي وما بلغت إليه الهيئة الاجتماعية التونسية إذ ذاك من التقدم في النظام والتربية والتعليم، لا سيما بعد قدوم المهاجرين الأندلسيين - خلال القرن السابع - واندماجهم في البوذية التونسية ونقلهم إلينا تقاليدهم وصناعاتهم ومعايشهم وأسباب تعليمهم ومسالكهم في التربية والتهديب.

أما مبلغ علمنا نحن عن شكل تأليف الهيئة الاجتماعية والحياة المنزلية لذلك العهد فإنه ما زال قاصرًا مقتضبًا ملتقطًا بكد وعناء من غصون الرحلات ومعاجم التراجم والأدب، نظرًا لقلة عناية العلماء ومتأخري الإخباريين بتدوين الأخلاق والعادات والرسوم وغيرها مما له تعلق بالشؤون القومية ومجهود الشعوب لنيل الرقي ضمن مباحث التاريخ. والسر في ذلك

78. تاريخ الدولتين للزكريا طبعة تونس ص 58 والخلاصة النقية ص 72.

79. أحد الأئمة المالكية الأعلام، ومفخر من مفخر تونس العظام، ولي قضاء الجماعة بالحاضرة فكان قائما بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وتخرج بين يديه جماعة من العلماء الفطاحل كعبد الرحمن بن خلدون، وابن عرفة، ونظرائهما ودون المؤلفات الأصولية الجليلة، توفي سنة 749، وكانت دار سكناه في نفس المحل الذي به الآن المدرسة الخلدونية العامرة.

اعتبارهم إياها أنها تقاليد راسخة غير قابلة للتحوّل والتبدل ولو مع تغير الحوادث وتكيف الأسباب وتنوّع العوامل وتعاقب العصور، فانصرفوا عن ضبط وتدوين ما كان يدور حولهم من المشاهدات والمحسوسات ولم يرووا لنا شيئاً من ذلك يجدر بالباحث العصري أن يبني عليه حتّى يعلم كنه ما وصل إليه أسلافها في التمدين والحضارة والعمران. وأنّه ليأخذنا العجب حينما نقع على نبذه أو طرفة تدلّنا على مبلغ ما وصلوا إليه فيما سلف من القرون في الأنظمة الاجتماعية وطرائق التعليم ومسالك التربية، هذا إن لم نقل أننا نتنكر له ونعده شيئاً غريباً ولا سبب لذلك غير الجهل.

هذا أبو محمد عبد الله التيجاني - وهو شاهد عيان لذلك الزمان - يخبرنا: «أنّ لأهل تونس في الأدب باعاً مديداً، فلم يكن منهم من لا يقول الشعر حتّى النساء والصبيان»⁸⁰.

لكن ليت شعري كيف تأتي للأجيال الحفصية أن تبلغ هذه المنزلة العالية من التهذيب؟ وكيف كانت أساليبهم في تلقين العلوم ونشر الآداب حتّى نتوصل لفكّ هذا المعمى؟ - هذا ما لا نستطيع الوصول إلى معرفته بما لدينا الآن من المصادر التاريخية والموارد الأدبية لأنّها تقصر عن أفهامنا كنه تلك النهضة. اللهمّ إلاّ إذا توفّقنا إلى إعادة ما تلاشى من المكتبات، وضل من المؤلفات، يومئذ نستطيع أن ندرك شكل تأليف تلك البيئة الراقية ونقدر عظمة تلك المدنية الذاهبة.

وهذا الرّحالة العبدري⁸¹ نجده يذكر استطراداً أدبية تونسية من أدباء ذلك العصر ويروي لنا قطعة نفيسة من شعرها الجيّد، ولم يفدنا عنها بشيء يعرفنا إياها غير قوله: إنها كانت ب قيد الحياة وقت مروره بتونس - سنة 688 - وأنها تنسب إلى أسرة ذات حسب وعلم ونبوغ.

وهاك غاية ما توفّقنا إلى معرفته من أمرها بعد البحث والتنقيب .

80. كتاب الشهب المحرقة للشيخ أحمد برناز التونسي (خط) والمنتخبات التونسية للمؤلف ص 114.

81. أبو عبد الله بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود شهر العبدري، خرج حاجاً من بلدة حاحة بالمغرب الأقصى - سنة 688 - وزار القطر التونسي ومصر والحجاز، وألف رحلة حافلة «مشتهرة باسمه لم تزل مخطوطة تكلم فيها عما شاهده بتلك البلاد وترجم لم لقي من العلماء بكل منها.

زينب التجانية

هي زينب بنت أبي اسحاق ابراهيم التجاني. من بيت عريق في العلم راسخ في الأدب، مكن في الرئاسة والتبرز، نشأت في محيط راق ووسط عال، فلبست صبغته واكتست بعبقريته فصارت دُرّة في العقد ومثالا للجوهر الفرد.

كان أبوها من فطاحل كتاب الدواوين الحفصية وأدباء دهر الفائقين المجيدين⁸² وكان كذلك أعمامها وإخوتها. وكان أصغرهم أبو الحسن علي «وهو الثاني عشر مدرّسا من آبائه على نسق طيب كلهم جلسوا للتدريس ونشر العلم بمدّرتهم⁸³». وندر منهم من لم يصنّف كُتُبًا قيّمة في الآداب ونحوها ولم ينبغ في القريض البديع⁸⁴. فلا غرو أن تكون (زينب) بين كرام أُلها كالوردة الفيحاء وسط الروضة الغناء.

أمّا ما نقله العبدري من شعرها فقد أنشده إياه أخوها الأديب أبو الحسن المتقدم. فمن ذلك قولها ملغزة فيمن اسمه تميم :

يقولون لي هذا حبيبك ما اسمه فما استطعت إفشاء ما استطعت أَكْثَمُ
فقلت اسمه ميمٌ وحرف مقدّم فهذا اسم من أهوى فديتكم افهموا

ومن قطعة لها في وصف شعر :

إذا انسدت منه عليها ذوابة كغصن أراك عانقته أراقِمُ
أثيثٌ طويلٌ فهو يسترُ جسمها إذا نزعَتْ عنه الملابس أسحم
كأنّ الصباح ارتاع من خوف طالب بِشَارٍ فَالْوَى بالدجى يَتَكَتَّمُ

82. يوجد شيء من ترجمة بكتاب «أزهار الرياض، في أخبار القاضي عياض» للشهاب المكري التلمساني (خط).

83. رحلة العبدري.

84. أوردنا تراجم أفراد البيت التجاني وشيئا من منتخباتهم النثرية والشعرية في مقدمة «رحلة التجاني» طبع تونس 1958 - وكذا في تأليفنا : المنتخب من الأدب التونسي.



قلت : ينظر مقطوعها هذا إلى قول وصيفتها الشاعرة الأندلسية حمدة بنت زياد الوادي أشية
على أبياتها المشهورة :

إذا سَدَلْتُ ذوائبها عليها رأيتَ البدر في أفق السَّوَادِ
كأنَّ الصبح مات له شقيقٌ فمن حزن تسربلَ بِالحِدادِ

وعلى كل فالواقف على هذه النتفة من الأدبية التجانية يعلم أنه كلام عارفة بقوانين الصناعة،
متمكنة من الأدب الغض تمكناً صحيحاً، ذات عارضة سيالة وخيال متسع، مما لا يقع مثله إلا
لحذاق الأدباء.

لكن ليت العبدري الناقل لهذه النبذة المقتضبة زادنا من نظمها وعرفنا بشيء من خبرها حتى
يستدل من القلادة على النحر ويصدق الخبر الخبر.

أمّ العلاء العبدرية

اسمها (سيّدة) بنت عبد الغني بن علي العبدري، وتكنّى أمّ العلاء، أصلها من غرناطة عاصمة الأندلس ووفد أبوها مهاجرًا إلى تونس أوائل القرن السابع فولدت له هذه الفاضلة.

وقد اعتنى والدها بتربيتها وتعاليمها قاصدًا بذلك منحها خطة شريفة، وتأهيلها لحرفة التعليم النسائي، الأمر الذي يکنفها ويكفيها مؤنة الاحتياج على فرض فقدانه مدة حياتها، فكانت رحمها الله آية في حفظ القرآن، بارعة في العلوم، مليحة الخط، تجتمع بالأندية العلمية وتناضل في المسائل المهمّة.

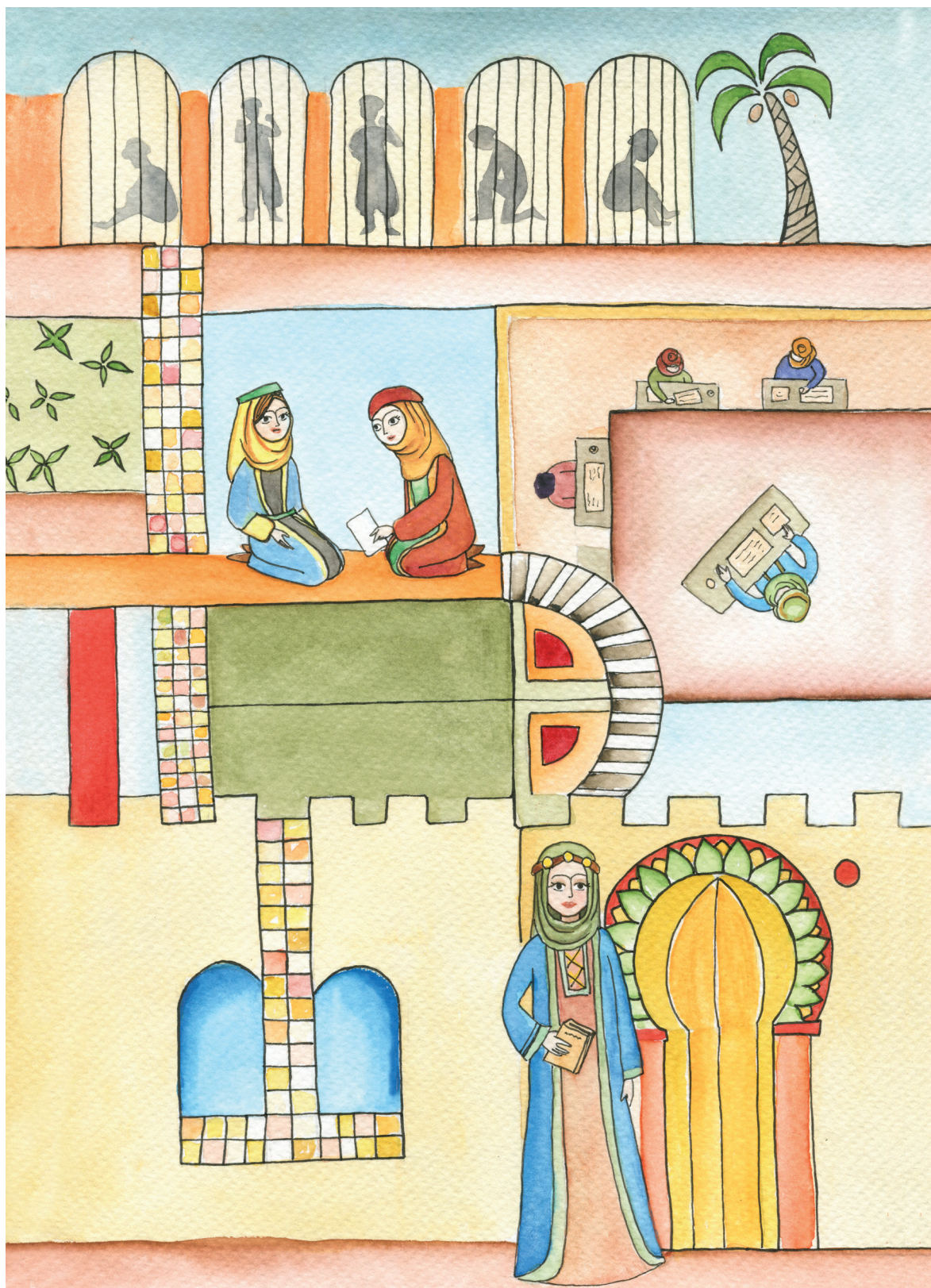
وقد علّمت بالحاضرة في بلاط السلاطين من بني حفص، وفي دور الأشراف والأغنياء، ونسخت بخطها مرارًا «إحياء علوم الدين للغزالي» إلى غير ذلك من مؤلفات الآداب والتربية الشرعية، ولم تزل مثابرة على تعليمها وعبادتها وإيثارها إلى أن أقعدتها عن ذلك زمانة ألزمتها منزلها نيفًا عن ثلاثة أعوام، فخلفها على مباشرة التعليم في تلك المدّة بنتان لها كانت أهلهما للقيام مقامها.

وتوفيت - رحمها الله - بتونس يوم الثلاثاء خلون والعشرون من الحرم فاتح سنة 647 ودفنت بمقبرة القصبّة المعروفة بالسلسلة.

وما يجدر بنا أن نورد في حسنات هذه العالمة الجليلة هو أن جميع ما كانت تتقاضاه من أجر تعليمها، وما كان ينالها من الجوائز الملوّكية التي كان أمراء بني حفص يتبرعون بها عليها خصّصته كله لفقراء أسارى المسلمين وفكّ عراهم من قيد النصراري لا سيما في عصر كانت فيه لصوصية البحر (القرصنة) ضربًا من الاتجار⁸⁵.

فهذه نهاية الإيثار وغاية الورع والإحسان، تقبّل الله عملها المبرور وسعيها المشكور بمنّه تعالى وكرمه.

85. كتاب «التكملة للصلة» تأليف ابن الأبار - طبع مجريط ج 2 ص 748 - وكتاب «جذوة الاقتباس في ذكر من دخل من الملوك والعلماء مدينة فاس» - لابن القاضي الكناسي.



سارة الحلبية

من أديبات هذا العصر الزاهي، الوافدات على الحاضرة التونسية جارية شامية اشتهرت بالأدب الغضّ والعلم الجمّ والفن الرائع، وهي (سارة الحلبية) عرفها أحد معاصريها من علماء الأندلس بقوله⁸⁶ :

«ومن المتظرفات من أهل زماننا هذا، ممن فاقت نساء عصرها (سارة الحلبية) أديبة شاعرة وطبيبة ماهرة، تتصرّف بيدها في جميع الصناعات فتجيد في ذلك، وتكتب الخط المستحسن، وتحلّ الذهب بصناعة رائقة فتكتب، وكان لها إقدام في الكلام، ووفادات على الملوك والأشراف».

«فممن وفدت عليه من الملوك أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصي صاحب افريقية، دخلت عليه وهو في قصره المعروف (بأبي فهر) فسلمت عليه وأنشدت بين يديه قولها فيه :

الشرق يزهو بكم والمغرب وكذا الزمان يتيه بكم ويطرّب
والملك والمجد والمفاخر والندى كال فخرٍ على مجدك يُنسب

وهي قصيدة طويلة أنشدته إياها الى آخرها، فاستحسن ذلك منها وأعجبه شعرها وإقدامها وفصاحتها وواصلها بصلة عظيمة وخلع عليها، ثمّ أنّه ضمها إلى حشمه وأقامت عنده حولا كاملا.

ثمّ ارتحلت إلى الأندلس فوفدت على الأمير الماجد أبي عبد الله محمد ابن محمد بن نصر المدعو بابن الأحمر على أول ولايته⁸⁷ وهو الملقّب بالفقيه إذ كان فقيهاً أديباً شاعراً ليبياً مقدماً في الحروب فأنشدته قولها :

86. هو صاحب كتاب «أنس العاشق ورياض الحب الوامق» مخطوط محفوظ في مكتبة لينينغراد بروسيا رقم 835 -راجع ما كتبه حبيبنا المستشرق الروسي كراتشفسكي في مجلة «الأندلس» مجلد أول الكراس الثاني .

87. هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن نصر من بني الأحمر ملوك غرناطة، تولى من سنة 671 الى 701 هـ.



شهرات التونسيات



سمالك ملكا لا يزول مجدداً وعزاً وتأيداً ونصراً مؤبداً
أرى الدهر فيما شئته لك خادماً على كل ماتخاره لك مُسعداً
وقد قرن السعد الجديد لطالع لملك جديد في دارة السعد شيداً

وهي أيضاً قصيدة طويلة فاستحسن ذلك منها وأكرمها وواصلها، وأرسلت صارة هنالك جماعة من الأدباء والشعراء والكتاب والفصحاء وناظرتهم فظهرت على بعضهم واستحسن كافتهم نظمها ونثرها، ومن راسلته الكاتب الجليل أبو عبد الله ابن المرباط والفقيه أبو الدراج والقاضي أبو أمية الدلالي رحمة الله تعالى عليهم.

ووفدت بعد ذلك على الأمير يعقوب بن عبد الحق المريني⁸⁸ بحضرة مراکش في يوم وصوله من المغرب إليها، فأنشدته قصيدة منها :

باليمن والسعد والتأييد والظفر قدمت يا خير الأملاك من مصر
فكنت كالشمس بعد الغيب ملفعة أو كالغنى جاء للمرء بعد الفقر
ملأتم الأرض من قسط ومن عدل وقلت أعدائكم بالرعب والذعر
من حط أرجله في نحو حضرتهكم أضحى مدى الدهر في أمن من الغير

فأكرمها وخلع عليها، ولم تزل في حضرته وهو الذي أجرى عليها الراتب والإحسان حتى توفيت في أيامه بحضرة فاس بالمدينة البيضاء منها، رحمة الله تعالى عليها.

يتضح لك - أيه القارئ الكريم - مما تقدم من الخبر الوارد في حق هذه الجارية الرحالة الأدبية، والصانعة الماهرة الطيبة، ما كان حظ النساء، في النهضة العربية ببلاد المغرب في القرن السابع للهجرة وكيف كانت الأدبيات الفاضلات يسافرن من أقاصي البلاد إلى أدناها طلباً للاطلاع والانتجاع وإظهاراً لمواهبهن، فيسامرن الأمراء، ويساجلن الفصحاء ويشاركن بالبحث في المسائل العلمية والمناظرة في فنون الأدب، وفي ذلك موعظة بالغة وعبرة لمن اعتبر.

88. هو الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني صاحب المغرب الأقصى تولى من سنة 656 إلى سنة 685 وكان اسلاؤه على مدينة مراکش خلال سنة 667 هـ وهو التاريخ الذي دخلت فيه أديبتنا صارة الحلبية إلى المغرب الأقصى.

السيدة المنوبية

هي عائشة بنت الشيخ أبي موسى عمران بن الحاج سليمان المنوبي، وأمّهما فاطمة بنت عبد السميع ومولدها بقرية منوبة غربي مدينة تونس⁸⁹.

نشأت رضي الله عنها في حجر أبيها وقد اعتنى بتربيتها، فعلمها القرآن الكريم حتى أحسنت حفظه، ثم لاحت عليها علامات الزهد والصلاح فأراد أبوها تزويجها من أحد أقاربها فلم تقبل وبقيت على عزوبتها، وقيل أنها تزوجت ثم ارتحلت الى سكنى الحاضرة بقصد الانقطاع للتبتّل، فقطنت منزلاً خارج ربض (رياض السعود) وهو المعروف عندنا اليوم بالمركاض حيث المقام المشتهر الآن باسمها.

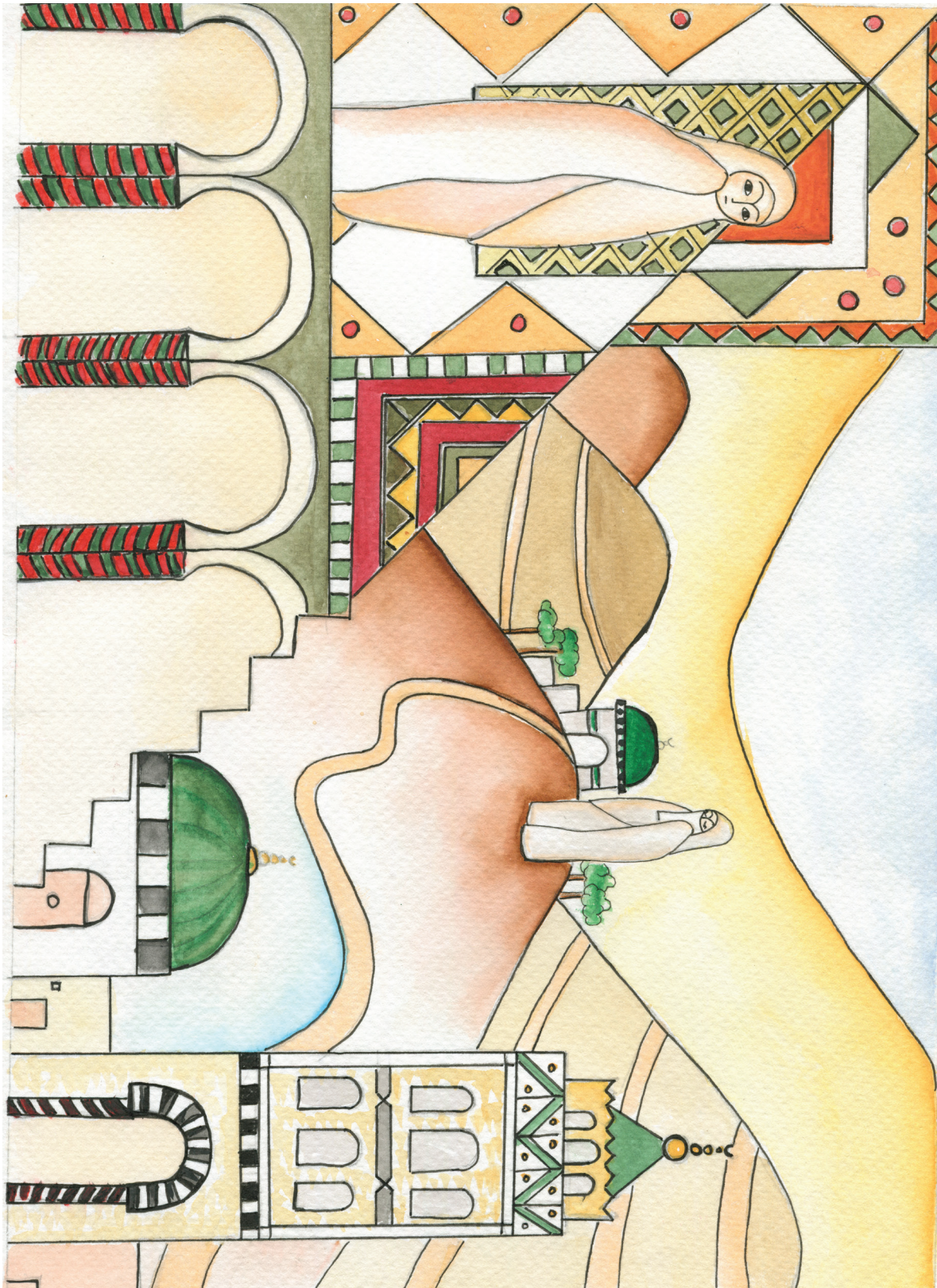
وكان شأنها العبادة وغزل الصوف وهو مورد حياتها، حكى في مناقبها أنها ختمت القرآن الشريف في حياتها ألفاً وخمسمائة وعشرين مرة. وكانت رضي الله عنها تبرّ بالفقراء والمساكين، وتكرّم المحتاجين، فما تحصل عليه من عمل يدها تصرفه في سبيل الله.

يروى عنها أنه إذا بات بجيبها درهمٌ ولم تتصدّق به تقول: «الليلة عبادتي ناقصة» وهذا ما يدلّ على خيرها وحنانها. وكانت ربما تنقطع أياماً عن الذكر ولما تسأل عن ذلك تجيب: «لا خير في ذكر اللسان ما لم يكن القلب حاضراً».

وأخذت السيّدة عائشة علوم اليقين عن الصالح الجليل وحبر الصوفيّة الكبير الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، ولها مع شيخها أخبار مذكورة وأحاديث مشهورة يرويها محبوبها خلف عن سلف.

وشاع خبر صلاحها بتونس وقطرها فلم تزل معظمة مكرّمة إلى أن أجابت دعوة ربّها ضحوة يوم الجمعة الحادي والعشرين من رجب سنة 665 على عهد السلطان المستنصر بن أبي زكرياء

89. مقتطف من كتاب خطي عنوانه: «مناقب السيدة المنوبية» تأليف إمام جامع منوبة - ولم يذكر اسمه - والخلاصة ص 64 و «دائرة المعارف الإسلامية» الطبعة الأولى.





الحفصي، وحضر جنازتها غالب علماء تونس في ذلك العصر، وآخر كلام سمع منها عند احتضارها : (إنَّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

توفيت رضي الله عنها عن سنّ عالية في السادسة والسبعين من عمرها، ولم تدفن بمنزلها بل دفنت بروضة القرجاني خارج شرف المركاض كما في التعريف القديم.

فما أشبه حياتها وخلالها بالسيدة رابعة العدوية العابدة الشهيرة وما أحقها بقول الله تعالى (يا أيُّها النفس المطمئنة أرجعي إلى ربِّك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي).



شاعرة شريفة

يناسب أن تنظم في سلك شهيرات القرن السابع أدبية حسيبة نبغت بمدينة بجاية التابعة إذ ذاك للمملكة الحفصية. وقد كانت بجاية في ذلك العهد من أغزر حواضر افريقية ثروة وأوسعها عمراناً، وأعرقها تمدناً، وقد اشتهر من أبنائها في العلم والأدب عدد كثير نخص بالذكر منهم : أبا الطاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الريف الحسني، فإنه تفرّد من بين معاصريه في الشعر الرائق والغزل الراشق لا سيما الموشحات المطربة التي سارت سير المثل . فمن قطعة له كتب بها من السجن إلى والي المدينة :

سلام كعرف المنّدل الرطب في الجمر	وإلاً كما هبّ النسيم على الزهر
فلله درّ مقلتين بعبرة	تعبر فوق الخد عن كامن السرّ
وقد راعني ايماض برق بذي الغضا	كما ابتسم الزنجي عن فلج الثغر
بدالي أن الليل أوري زَناده	ولا نار إلا نُور برق له يسري
ونار بأكبدي أكابد مرّها	وقلب سليم قلب في لظى جمر
وما طائر فوق الغصون مسرّح	كمن بات مقصوص الجناحين في وكر
فلم أنس توديع البنين مصفداً	وأصغرهم يجري وأدمعه تجري

وكان لأبي الطاهر هذا أبناء نجباء أشهرهم نبلا وفضلا الأنسة (عائشة).

قال القاضي أبو العباس الغبريني⁹⁰ كانت عائشة أدبية أريبة فصيحة لبيرة وكان لها خط حسن. رأيت كتاب الثعالبي «يتيمة الدهر» بخطها في ثمانية عشر جزءاً وفي خاتمة كل سفر منه قطعة شعر من نظم والدها رحمه الله. وهي نسخة عتيقة ما رأيت أحسن منها ولا أوضح. ولقد

90. كتاب «عنوان الدراية، فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية» طبع صديقنا العلامة محمد بن أبي الشنب - الجزائر سنة 1328 ص 25.



شهرات التونسيات



رأيت منه نُسخًا كثيرة منتقدة إلا هذه النسخة، ولقد يجب أن تكون هذه النسخة أصلاً لهذا الكتاب. وهذه النسخة من جملة الخزنة السلطانية ببجاية.
ومن شعر الشريفة عائشة :

أخذوا قلبي وساروا واشتياقي أودعوني
لا عدا أن لم يعودوا فاعذروني أودعوني

ويقال أنها بعثت بهما إلى أبي علي حسن بن الفكون شاعر وقته وطلبت منه معارضتهما. فكتب لها معتذراً عن الجواب : إنَّ الاقتصار عليهما هو الصواب.
ولها أيضاً :

صدّني عن حلاوة التشيع اجتنابي مرارة التوديع
لم يقم أنس ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميع

ولها في معنى المداعبة وقد خطبها رجل من الأشراف كان أصلع فلم تجبه إلى مراده وقالت هذه الأبيات تدعب إحدى صاحباتها من الفتيات الكعاب :

عذيري من عاشق أصلع قبيح الإشارة والمنزع
يروم الزواج بما لو أتى يروم به الصفع لم يصفع
برأس حويج إلى كية ووجه فقير إلى برقع

ولها رحمها الله ظرائف أخبار، ومستحسنات أشعار، لم نقف منها إلا على ما أوردنا.

حومة العُلُوج

بحاضرة تونس من شمالها الغربي حارة أهلية ملاصقة لسور البلد يفتح إليها باب من أبواب المدينة تسمى : (حَوْمَة العُلُوج) وكثيراً ما يتساءل التونسيون عن سبب تعريفها بهذا الاسم.

كانت العادة عند السلاطين من بني حفص التسري بإفريقيات ينتقونهن من سبي البحر، ويتخذونهن جوازي يطبق عليهن اسم (علاجي - جمع علجية) فمتى ولدن أميراً ميزن من بين الخطايا بالإجلال والتعظيم وصار لهن كلمة ونفوذ في البلاط الملوكي.

ومن عجيب ما يلاحظ أن غالب السلاطين من بني حفص أمهاتهم نصرانيات اعتنقن الإسلام بغير إكراه في الدين - وقد حصلن على مرتبة علياء في تدبير شؤون المملكة والاهتمام بمصالحها، وطالما وفد عليهن أقاربهن من بلاد الإفريج فيلاقون بمزيد الحفاوة والإكرام.

ومثال ذلك ما وقع على عهد السلطان أبي عمر وعثمان حفيد أبي فارس عبد العزيز فأن أمه كانت روميّة - والمظنون أنها من سواحل إيطالية الجنوبية - اسمها (ريم) أسرها القرصان وسيقت إلى تونس مع غيرها وتزوجها الأمير محمد المنصور. فلما بويع ابنها بالولاية - سنة 839 - وكان آخر رجال الحفصيين وخاتمة أنجادهم، وفد عليه جمع من أخواله وأقاربه مهنيين له، فأكرم نزلهم وأسكنهم الربض الملاصق للقصبة حيث مقرّه، فعرف من ذلك الحين باسم (حومة العلوج)⁹¹.

هذا السبب هو الذي علّل به مؤرخنا وجه التسمية. لكن في اعتقادنا أن تلك الحارة كان يسكنها أيضاً أعوان الجند النصاري الذين كان سلاطين بني حفص يتخذونهم لحرسهم، على أن البيان الأول لا يمنع الأخذ بالثاني والله تعالى أعلم.

91. المؤنس ص 159 - والحلل السندسية للوزير السراج (خط) والخلاصة النقية ص 83.

مريم الزناتية

وقعت في كَنش للمؤرخ الأديب الشيخ محمد السنوسي التونسي جعله لتقييد ما يعثر عليه من نوادر الأدب حين كان يجمع في مواد معجمه الكبير المسمى «بمجمع الدواوين التونسية» فمن جملة ما وجدت بيه بيتين لامرأة من القيروان اسمها (مريم الزناتية القيروانية) ولم يذكر الشيخ رحمه الله المصدر الذي التقط منه اسم الشاعرة الافريقية ولا البيت المنسوبين إليها. قالت مريم :

تعلمت علم الكيمياء جميعه وطوّقت فكري من مزاياه أطواقا
فلو يلقي جزء من هواي ولوعتي على ألف خال أصبح الكل عُشاقا

وما أشك أن أمثال هذه الأدبية المجهولة كن كثيرات في خلال العصور الزاهرة بالمدينة العربية في هذه الديار. لذا رأيت من المناسب إثبات اسمها بين صاحباتها التونسيات اللاتي اتصل بنا خبرهن، عسى أن يأتي من يبعثها يوماً من مرقدها.

وفما يلوح لي أن مريم هذه كانت من شواعر آخر الدور الحفصي - القرن الثامن أو التاسع للهجرة - كما يظهر ذلك من نسق نظمها ولا سيما من ذكرها للكيمياء وقد ولع الناس وقتئذ به أيما ولوع - والله سبحانه عالم بأمره⁹².

الحاسرة جاسرة

من طريف ما أورده الأديب التونسي أبو القاسم محمد الجدّموي في إحدى تأليفه⁹³ الحكاية الدالة على نباهة بدويات قطرنا في مدة هذا العصر الحفصي وعلوّ نفوسهنّ واستقال طباعهن، قال :

92. أقول أنني عثرت في مقبرة الجناح الأخضر بالقيروان على لوح رخامي مرسوم به بعد الديباجة المناسبة : «هنا قبر مريم بنت عبد الله الهواري، توفيت رحمه الله في شهر شعبان المكرم عام ثمانية وخمسين وسبعمائة» - ولا يخفى أن هواره هي قبيلة تتصل بنسبها إلى زنّانة، فلا يبعد حينئذ أن تكون مريم المدفونة هناك هي نفس الشاعرة المشار إليها فيما تقدم لا سيما وأن نقش القبر قد اعتنى به غاية الاعتناء مما يدل على عظيم شأن المقبرة به.

93. كتاب «رفع الإزار عن محاسن الجوار» مخطوط نفيس في الأدب منه نسخة خطية بمكتبتي.





«ومنه ما حدثني به قاسم المدعو بأعوج الضلوع بن منصور بن حمزة من أولاد أبي الليل الهلالين، قال : تزوّج والدي امرأة طرفية من صحارين لا يعرف لها أصل أصيل وأدخلها على ابنة عمه وكانت زوجته الأولى، ثمّ أنّه أضاف هذه الطرفية إلى بيت زوجته. فكبر ذلك على ابنة عمه ولم تطق نفسها هذه المضايقة فغاضبته والتحقت ببيت أبيها وأقامت عنده مدّة، فلما كان بعض الأيام بينما كان النجع سائراً في طلب الكلاء إذ جئنا إلى شَعْبٍ قد تشعّبت طرائفه، وتفرّغت ثناياه ومسالكه، فعربدت الإبل وأبت أن تقطع الشعب وانحبس جميع النجع بسبب ذلك، وتوقف الرّواد والادلّاء ولم يتوفّقوا إلى المسلك، فجاء والدي الشيخ منصور إلى مفرق الثنايا ولم يهتدِ رشداً والتبس عليه الأمر فلم يدر كيف المخرج منه، فنادته ابنة عمه من هودجها وقالت له :

– أين الناقة الصهباء الخوّارة ؟

قال لها : ماتت

فقلت له : هل بقي شيء من ضناها ؟

قال : بَكْرَة واحدة

فقلت له : أجعل من يأتي بها

فلما جاءت البَكْرَة سلكت المسلك وتبعتها الإبل وخرج النجع خلفها، فقال لها والدي : وكيف علمت ذلك ؟

فقلت له : خَلَفَ أمّها كان النّجع يجوز المسالك، ويقطع المهالك و(ابنة الحاسرة جاسرة)⁹⁴.

94. حسر البعير يحسر حسرة، أعيا وسقط وبره، والحاسرة هنا بمعنى الألفة بالعباء من السير حتّى تهزل، وهي من الصفات المحمودة في الإبل، فقولها (الحاسرة جاسرة) تقصد أن الناقة المعتادة بالسير والعباء وقطع الفيافي والمفاوز تكون جاسرة على سلوك الطرق والاهتداء إلى ما نشعب منها، وبدل عليه وصفها لتلك الناقة بالخوّارة وهي الضعيفة الرقيقة الحسنة، ولا يأخذك العجب من ورود مثل هذه الألفاظ الشاذة الاستعمال في فم بدوية هلالية في الزمان الحفصي القريب العهد منا فإن كلام أعرابنا لم يزل لحد اليوم فصيحاً لا ينقصه إلا الأعراب ليكون عربياً مبيناً، وفي لهجتهم الدارجة بينهم من الغريب والشاذ ما يبهت الباحث.

قال قاسم أعوج الضلوع : فلما نزل النجع وخطّ رحاله جاء الشيخ منصور إلى ابنة عمه وطيب خاطرها وصرف الطرفية الأجنبية إلى أهلها، وكان في مثل الذي ضربته له ابنة عمه إشارة خفية إلى مكانة الأصالة وقوة فعلها في الحيوان أخرى في الإنسان.

سوق الكلاب

وروى المؤلف المتقدم عقب هذه القصة حكاية أخرى من باب الفكاهة والانبساط، إلا أنها ترشدك أيضا إلى ظرف أعرابيات باديتنا وحسن أخلاقهن وميلهن إلى المزاح المباح، قال : «ومنه ما حدثني سعيد بن جبارة أحد أصحاب الركاب العلي أعزّه الله⁹⁵. ونحن بالمحلة المظفرة بظاهر بلد قفصة⁹⁶، قال كنا بسوق التجار بها جلوسا وخطرت علينا أعرابيات تقود إحداهنّ كلبا جارحا، وهي أصغرهنّ سنّا وأكبرهنّ حُسْنًا، فقال لها أحدنا على وجه المداعبة واستجلابا للكلام :

يا أعرابية، الكلب للبيع ؟

فانحرفت لصاحباتها وقالت لهنّ :

تعالين، تعالين، سوق الكلاب هنا ونحن لا نعلم

ثم انصرفن فوراً ضاحكات، وبقينا خجلين !»

95. يقصد السلطان الحفصي أبا فارس عبد العزيز بن أحمد بن محمد المتولي الإمارة من سنة 796 إلى سنة 837 وهو آخر مشاهير سلاطين هذه الأسرة، وكان الجدميوي المؤلف المذكور يعيش في أيامه.

96. يشير إلى استلاء السلطان أبي فارس المتقدم الذكر على قفصة خلال سنة 802 وكان خالف عليه بها شيوخها من بني العابد الهلاليين. فاسترجعها السلطان بعد حصار وقبض على الثائرين.





الدور التركيبي



تمهيد

استند آخر السلاطين من بني حفص على أمة الإسبان لدفع القلاقل الداخلية التي حدثت بالقطر التونسي في أواسط القرن العاشر، فاغتنمت حكومة اسبانيا تلك الظروف الحرجة لنصب حمايتها على الحواضر الساحلية من الإقليم الإفريقي. ونشأ عن تسلط هؤلاء الدخلاء تفرقة بين أهل البلد والحكومة المحلية مؤذنة بخراب العمران وفقدان العلم، فاندurst المعالم واندثرت القصور وتبدد السكان بالهجرة والقتل، وأضحى التمدن الحفصي أثراً بعد عين.

فلما أسفر صبح القرن الحادي عشر إلّا والسلطة التركية معلنة بالبلاد التونسية، والبلاد كالشبح البالي مما أصابها من النكبات التي طمست آثارها وشوّهت محاسنها وقرضت نحو ثلث قاطنيتها وجعلت شطراً كبيراً من معالمها أطلالا دوارس.

فسعى الولاة الأتراك الأولون في إحياء ميت الصناعة وإعادة الروتق السابق فلم يتمكنوا من ذلك إلّا بعد التجاء جالية الأندلس إلى القطر التونسي، فارّين بدينهم من طغيان الإسبان.

أنزل الدايات هؤلاء المهاجرين بالمدن والقرى واقطعوا بعضهم حول العاصمة أراضي واسعة ظهرت فيها مواهبهم ومعارفهم في الزراعة والغراسة، ولم تكن غير مدّة يسيرة حتى زهت الحاضرة بالفنون الجميلة مثل الهندسة والنقش والموسيقى والصنائع المختلفة منها صناعة الشاشية والأنسجة الحريرية والخزف المطلي والزليج وغير ذلك.

وأصبح أبناء البلاد بين حضارتين متباينتين فالأولى التركية - شرقية المأخذ، والثانية - الأندلسية - عربية المنبت، مقتبسة من بقايا التمدن العربي مع ما انضاف إليه من التقاليد الإفريقية، فتقلد التونسيون بكلتا الحضارتين واقتبسوا من الذوقين الشرقي والغربي ما ناسبهم من الأخلاق والعوائد والمآكل والملابس.

وهذا المزيج من التمدن هو الذي تدرّج في البلاد من ذلك الحين إلى أن وصل إلينا على الشكل الذي نعهده اليوم ولم يعثره إلّا تغيير يسير - وإلى الله مصير الأمور.

العقائل الحفصيات

قضى الله على رجال الدولة الحفصية بتبدد الشمل، وتفرق الأهل لما سبق في علمه من زوال ملكهم وانقراض عقدهم.

كان محمد بن الحسن آخر ملوك هذه الأسرة - وسبحان من لا أول له ولا آخر - وكان له بنتان جميلتان زوجهما في مدة ولايته بابني وزيره محمد الرصاع من البيت المشهور بالعلم، وكان الزوجان من أئمة جامع الزيتونة وأعيان مشيخته. فلما اضطرب حبل بني حفص وتمزق ملكهم قُتل الإخوان في معركة وبقيت زوجاهما مختفيتين في بعض الزوايا المهملة لا والي لهما ولا نصير إلا الله سبحانه.

ثم انتصبت السلطنة العثمانية على البلاد كما قدمنا وأول من قلّدتها الأمر هو حيدر باشا - في حدود سنة 985 - وكان عادلاً برّاً بالرعية، ناظراً في مصالحها.

وبينما كان حيدر باشا جالساً ذات يوم بديوان القصة إذ دخلت عليه امرأتان فقيرتان تلوح عليهما خمائل الشهامة والعفاف، ومعهما بنات صغيرات فتقدّمت إليه إحداها وقالت :

- أبقى الله والي، نحن بنتا محمد الحفصي وآخر من بقي من الأسرة المالكة لهذه الديار، كُنّا - ولا تسأل كيف كُنّا - كنا في عصمة الأزواج وتحت ظلّ الدولة الزائلة، فغدر بنا الدهر، وتشتت الأمر، فنهبت أموالها، واغتصبت أملاكنا، وآل أمر المدخرات منا إلى التكفف بالأسواق، متفرقات بعد انتظام الشمل، حقيرات بعد العز، حالة يسوء ذكرها، وإن ذاع نشرها... فإن رأى والي أن ينظر في أمرنا فيجعل لنا من الضيق مخرجاً، ومن الشدة فرجاً...

كانت الأميرة الحفصية تقول ذلك والعبرات تفيض من خلف نقابها حتى بلّلت حجابها، وقد أذابت قلوب الحاضرين وأبكت من أدرك دولة أبيها الذاهبة.

فالتفت إليها حيدر باشا بعد أن أطرق ساعة وقال :

- ليسكن روعك ولتقرّ عينك ! فإنّ حرمة الإسلام وعظمة السلطنة لا يسمحان بإهمالكن أبداً، وسأنظر في شأنكن.



ثمّ إنّه أمر أحد كُتّابه بتحرير سجلّ في ترتيب جراية مناسبة يدفعها لهن متولى دار الباشا من فواصل المال بعد خلاص منحصّصات العساكر، وأجرى عليهن، نفقة من الأقوات مثل القمح والزيت والسمن وغير ذلك، تعطى لهن في أوقات معلومة من السنة، وأوقف عليهن فوق ذلك زياتين كثيرة وأراضي شاسعة من أملاك الدولة يُصرف ريعها لهما ولعقبهما من بعدهما⁹⁷.

وبذلك عصم حيدر باشا عقيلات بني حفص من الاحتياج وجعلهن في حرز من الكفاف.

قلت ومازال الوقف الذي تبرّع به حيدر باشا جاريا لحدّ الآن وهو المعروف في الحاضر باسم (حُبس الحفاصة) يشارك في الانتفاع برّيعه نحو ثلاثمائة عائلة تونسيّة. ويواصلون الدعاس للمتسبّب فيه بكرة وعشية.

97. كتاب «المشرع الملكي في دولة أولاد علي تركي» تأليف محمد الصغير بن يوسف الباجي (خط).



عزيزة عثمانة

خطرت على أديم هذه البلاد مئات الآلاف من العقائل المثلثات الموسومات باللفظ والجمال، والرقة والدلال، والبهاء والكمال، مرتقى خيال الشاعر وصفهن، ومطلع خواطر الناثر ذكرهن، فمن الزهر في الأكمام، والدراري المثلثة بالغمام، فكم سين عقولا، وتيمّن ألبابا، وجندلن أبطالاً، وصرعن أتراباً، فيا الله أين هن اليوم؟ وأين ذكرى محاسنهن؟

أفلت شمسُ الجمال، وذوت أفنان الدلال، وثوت القدود، وهصرت الخدود، وذبلت النهود، وضاعت المحاسن، وانطوت الأحاسن، انطواء زهر الرياض، في أديم الغياض، فمضين وكأنهن لم يدرجن، ومضين وكأنهن أحلام...

اللهم إلا أفذاذاً من هذا الجنس اللطيف اقترنت حياتهن بالعظام وجلائل الأعمال بقين خالداً الذكر، يبلى الجديدان، ويتعاقب الملوان، وهن باقيات بقاء الدهر.

ومن أطيبهن نشراً، وأجلهن قدراً، الأميرة الجليلة المنعمة (عزيزة عثمانة) بنت أبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان داي⁹⁸ صاحبة المبرات، ومُسديّة البركات ومفيضّة الخيرات، التي يجدر بالمؤرخ المنصف أن يدعوها بحق (المحسنة الكبيرة) ولا غرو في ذلك وهي باذلة المعروف، ومغدقة الإحسان وذات اليد البيضاء، والمحاسن الوضاء، على ساكني هذا القطر.

أجل! فقد نشأت هذه الأميرة الماثلة في منتصف القرن الحادي عشر في بيت الإمارة واليسار والكرم، وعنى والدها أبو العباس أحمد بتربيتها وتعليمها وعين لها من فقهاء الدين وحفظها القرآن ولقنها الآداب وأصول التربية وسياسة المنزل، فبرزت من خدر الأبوة مثلاً طيباً للطهر والصيانة والعفاف، وذلك بفضل تلك التربية الإسلامية العالية، وما عتم أن زوجها أبوها من

98. الداي، هو لقب لولاة الأتراك الذين تداولوا السلطة ورئاسة الجند في تونس والجزائر من جانب الباب العالي واستمر إلى أن تسلم ذروة الإمارة حسين بن علي تركي واشتهرت المترجم لها بعثمانة نسبة إلى جدها عثمان داي.



أحد خاصّته الأكابر - قيل هو حمودة باشا المرادي - فكانت وهي زوجة رمزاً للتقوى والصلاح والبرّ بالضعفاء والمساكين، وقضت مع زوجها حياة هنية رحية ناعمة.

ولم تكن هذه الأميرة العزيزة من السيّدات اللائي يطرهن الرفه واليسار، أو ممن يعقدن عن أداء واجباتهن وقضاء فروضهن ومناسكهن بل كانت دينة خيرة عالقة برّبها. ناهيك بما تجشمتها من مشاقّ السفر إلى الحجاز وركوب الأخطار والأهوال، لأداء الفريضة فتارة على متون البحار وآونة بين لّبات الفدافد والرمال، فحجّت واعتمرت وحجّ معها خدمها وعبيدها وحشمها. ولما عادت إلى تونس أطلقت المماليك وأعتقت العبيد احتساباً لوجه الله الكريم، وابتغاء رضوانه العميم، وتمحّضت بعد ذلك للأعمال المبرورة، والمسااعي الصالحة المشكورة، ووضعت وصيتها الخالدة المشهورة، التي تجرّدت فيها عن كلّ ما تملكه من الرّبع والعقار وجعلته وقفاً سرمداً على أوجه البرّ والإسعاف والمعروف، عكفت ملازمة لأفضل القرب وأسما الفضائل إلى أن لبت داعي ربّها ووافها الأجل المحتوم فماتت محزوناً عليها يبكيها الظاعن والبادي وذلك في حدود 1080 من الهجرة. ودُفنت في مشهد حافل بتربتها المشهورة «بحلقة النعال» حذو المدرسة الشماعيّة داخل المدينة.

أمّا الأعمال الخيريّة التي أجرتها ووقّفت عليها فهي كثيرة منها : إقامة مرستان داخل الحاضرة - بحومة العزّافين - لمعالجة أصناف الآلام، وقد صار يسمى بعد (المستشفى الصادقي). وأرصدت عليه من الربيع ما يخلد بقاءه ويستمرّ النفع به إلى ما شاء الله.

ووقّفت أيضاً عقاراً كثيراً وجعلت ريعه ينفق على عتق الرقيق، وفكّ العاني، وإنقاذ الأسير.

ووقّفت كذلك على ختان أولاد الفقراء وكسائهم يوم عاشوراء من كل عام، ووقّفت أيضاً على تجهيز الأبنكار اللائي يثقلهن الفقر ويحول دون زواجهن، صيانةً لهن من الابتذال وترغيباً في الزواج بهن، إلى غير ذلك من الأوقاف النافعة الممتعة التي يضيق عنها الحصر، الشاهدة بما لهذه المحسنة الكبيرة الكريمة من المزايا العالية والمآثر الغالية التي يرفل في برودها المغشاة الشعب التونسي بأسره اليوم. فيه جابرة المرضى، ومطعمة العجزة، ومفرّحة المساكين، ومنقذة الرقيق، وأمّ البنين وملجأ الأبنكار وحصنهن الحصين. وكأنني بأبي الطيب المتنبي لا يعني سواها بقوله :

ولو كان النساء كمثل هذي لفضّلت النساء على الرجال !

ومن الدلائل الناطقة بكمال إحساس وشرف عاطفة هذه السيّدة النبيلة وحسن ذوقها ورقة حاشيتها الوقف الذي أرصدت ريعه لشراء أزهار كل فصل من فصول السنة توضع على قبرها في كل يوم، من ورد، وياسمين، وخيري، وبنفسج، ولا عجب أن تهيم هذه الدرة اليتيمة بحب الرياحين حية وميتة فما هي إلا زهرة الزمان وربيع الدهر ! وكأنني بتلك الشاعرة الأعرابية لم تعدها في الوصف حين تقول :

بأنّك ربيع وغيث مريع وأنّك هناك تكون الشمالا

نعم ! هي الآن ثاوية في ضريحها لكنّها تركت لتونس من الشذى العاطر، والذكر الفاخر، والجميل الباهر، وما يبقى أثره، ولا ينقطع خبره⁹⁹ تغمّدها سبحانه بالرحمة والرضوان، وسكب على قبرها شأبيب الغفران. وتقبّل صنيعها بالمبرة والإحسان، وأحلّها رفيع الجنان :

أمين أمين لا أرضى بواحدة حتّى أضيف إليها ألف أمينا !

التسامح الإسلامي

رأينا في أخبار العصور الأولى ما فتحه سكان القطر التونسي من مدائن البحر المتوسط وجزائره بقوة أساطيلهم المنشآت كالأعلام :

مواخر في طامي العباب كأنّها بناء على غير العراء مَشِيد

99. العجب كل العجب من أغفال متأخري المؤرخين التونسيين ذكر ترجمة حياة هذه المحسنة الكبيرة وصيتها ملاً الآفاق، والعامّة لاهجة بذكرها تواصل الدعاء لها - وألسن الخلق كما قيل أقلام الحق - حتّى أني اضطررت للوقوف على لمحة من حياتها إلى البحث الطويل هنا وهناك فالتقطت هذه النصف القصيرة من رسوم أحباسها بالأوقاف العامة ومن أفواه بعض الناس. ولا مرأ أن أمثال (عزيزة عثمانة) في الممالك الراقية تقام لهن النصب والتماثيل بالساحات والحدائق العمومية، وتنتحل الشوارع الكبرى أسمائهن تخليداً لذكورهن وتشويقاً للاقتداء بفعالهن. ولكن لا يسعني في هذا المقام إلا أن أقول مع القائل :

والغيث ليس يُبالي أين ما انسكبت منه الغمام تُرباً كان أو حَجراً

ويا حبذا لو تنتبه إدارة الأوقاف إلى تدارك ما فات ولو بترصيع التكية - ملجأ الضعفاء والعجزة - باسم تلك المحسنة. وأي اسم أولى وأحقّ بذلك الشرف من اسمها وهي له زراعة وغراسة ؟

وقد ساعدتهم على ذلك خبرتهم التامة بإنشاء السفن والمراكب وتجهيزها، ومهارتهم المعروفة في فن البحارة وخوض عُباب المالح، والتاريخ يشهد لهم بذلك من قديم الزمان¹⁰⁰.

فلما تدلّى أمر الدول الإفريقية، وتقاعست همم أهلها اقتصر سكان هذه البلاد على غزو البحر (القرصنة) واغتصاب من يجدونه من النصارى بالسواحل الإفريقية أو بالسفن المنحازة فيسوقون سبيهم إلى الحواضر الشرقية ويبيعونه بأسواقها. وكان (سوق البركة) بتونس من أعظم أسواق الرقيق الأبيض. وقد اعتاد التونسيون من عهد بعيد - لا سيما الأسر المالكة منهم - التسريّ بالجواري الافرنجيات المجلوبات بالصفة الأنفة لما كانوا يستحسنون من بياض ألوانهن، وجمالهن الوضاح، وانقطاعهن عن أوامر القراية لأن حمة المصاهرة قد تكون مضرّة بصاحب السلطة والسلطان وربما يخطر بالبال أن انقطاع الجواري عن أوليائهن يجعلهن مهضومات الجانب، مبخوسات الطالع لقلّة نصرائهن وضعف عصبيتهن، لكن الأمر بالعكس، والخبر الآتي أقوى دليل على صحّة ما نقول :

ففي حدود سنة 1075 أسّر بعض البحارة التونسيين فتاة افرنجية من ناحية مدينة (فرنسيّة) بشمال إيطاليا. وكانت هذه الكعاب ذات جمال فتان، فأُتي بها إلى الحاضرة وأهديت إلى مُراد باي المرادي صاحب البلاد. فأدخلها مُراد في جملة جواريه وما لبثت حتّى تزوّجها وصارت (باية) أميرة.

وقد ملك حبّها شغاف قلبه، فنفدت كلمتها وعلا صيتها ونبل قدرها وكانت مع ذلك مصرّة على تدينها بالمسيحية ولم تحمّل على تركها عملاً بآية (لا إكراه في الدين) ولم تزل كذلك إلى أن مات زوجها مُراد وامتلك ابنها رمضان باي الإيالة التونسيّة - سنة 1108 - فازدادت بذلك سطوة ومكانة، فكان ولدها يستشيرها في مصالح الدولة، ويقتدي برأيها في معضلات الأمور، وهي أول من أدخل آلة الأرغن (البيانو) الى تونس لتتسلّى بها في غربتها. ثم بعد عامين أُلّم

100. راجع ما قاله ابن خلدون في مقدمته في الفصل الذي عقده لقيادة الأساطيل.



بها مرض عُضال وماتت على عقيدتها، فاغتتم رمضان لمصاب أمّه ولبس عليها الحزن، ومن جملة ما وُفي لها به أن دفنها على الطقوس المسيحية وابتنى على قبرها الكنيسة القائمة الآن قرب باب قرطاجنة¹⁰¹.

وهي أول كنيسة أنشئت بالحاضرة في العصر الإسلامي بل أول معهد ديني مسيحي أحدثه أمير مسلم¹⁰².

فانظر - يرباك الله - إلى أين بلغ تسامح المسلمين واحترامهم لمعتقد المخالفين في عصر كان الإسبان يضطهدون عرب الأندلس لمجرد تدينهم بالإسلام ويحولون جبراً مساجدهم كنائس. ولله عاقبة الأمور.

101. قلت : هي كنيسة الأرثوذكس الآن وكان وضعها الأول لمذهب الكاثوليك.

102. الخلاصة النقية ص 111 - وابن أبي الضياف ج 3 (خط).



الدور الحسيني



تمهيد

اعتري السيادة التركية في القطر التونسي - أوائل القرن الحادي عشر - وهن أدّى إلى تلاشي سلطتها بسبب استبداد بعض زعماء الأجناد الغير الأكفاء لإدارة شؤون البلاد. وقد نشأ عن ذلك تعب عظيم للسكان بما ينجرّ لهم من المشاغبات المستمرة والقلائل الداخلية التي ألت بالقطر إلى خراب المعالم وفشل العزائم، وما زاد الطين بلة ظهور عداوة خيالية حدثت من جرائها حرب مشؤومة بين الإيالة التونسية والإيالة الجزائرية لاقى من هولها التونسيون أنواع التشيت والهوان، ولم يكن لاستتباب الأمن وإزالة الروع من طائل لو لم تنتصب الإمارة الحسينية على أريكة المملكة التونسية - سنة 1117 وقيام مؤسسها (حسين باي الأوّل) بتمهيد الراحة وإصلاح ما انتثر من عقد جمال عمرانها، وبذلك تسنى لأهل البلاد الرجوع إلى حياتهم السلمية وأشغالهم الحيوية، فسعدت المملكة وامتلت أيدي سكانها بالملكاسب وقد أثاروا الأرض وعمروها وتنافسوا في الصناعات والخلال الحميدة - والناس على دين أمرائهم - فكان هذا الأمير يحرضهم على الاقتصاد والتوسع في أسباب التكسب، تحريض الأب الرؤوف المشفق لأبنائه البررة ويصرفهم بحكمة سياسته عن الإسراف في وجوه الترف¹⁰³.

زخرف اللباس

من النوارد اللطيفة الدالة على اهتمام حسين باي بمصالح الشعب وحرصه على حفظ العوائد القومية والأخلاق من التلاشي ما أثبتته رواية التاريخ¹⁰⁴:

قيل دخل يوماً دار ابنته (فاطمة) بباردو، وكانت من أحسن نساء زمانها جمالاً، وأوفرهن عقلا وكمالاً، فرأها بحزام مثقل بالذهب وأنواع الجواهر الثمينة، فسألها عنه، فقالت له:

- اشتراه لي خديكم، تشير إلى زوجها ابن أخيه على باي - فسأل حالا بعلها عنه فقال له:

103. تاريخ ابن أبي الضياف : الجزء الثالث (خط).

104. الحلل السندسية : جزء 3 - وابن أبي الضياف (خط).

- إنّه من عمل أبناء بلادك، وعيّن له الصانع، فأرسل إلى هذا الأخير ولما حضر قال له :

- لولا أنّه لم يتقدّم منّي نهّي عن ذلك لعاقبتك، إذ أن اتقان الصناعة وتحليتها غير محصور في كثرة الذهب والفضة، ونهاه أن يعود لمثله.

ثمّ أنّ حسين باي عاد إلى منزل ابنته وأخذ الحزام ومزقه وقال لها :

- إنّك من بنات تونس فلا تخرجي عن عادة أخواتك من نساء البلاد فيهلك الناس بسببك في الاقتداء - وأهل الرئاسة والأغنياء هم في كل أرض قادة العامة وأسوتها - فاحذري يا بنيّتي أن تكوني أسوة سيئة إذ أخشى أن يتغالى النساء في تقليد قميصك المطروز، وعبائك المزركش، وحزامك المجوهر، فيفتقر الرجال في تبذير المال في البذخ وزخرف اللباس، وبذلك تذهب ثروة البلاد أدراج الرياح، ولا أخالكما ترضيان بذلك .

وبعد أن ألقى الأمير هذه الكلمات المؤثرة قامت ابنته وبعلمها وقبلاً يده ووعده بالامتثال، في الحال والاستقبال .

أمّ الأمراء : آمنة

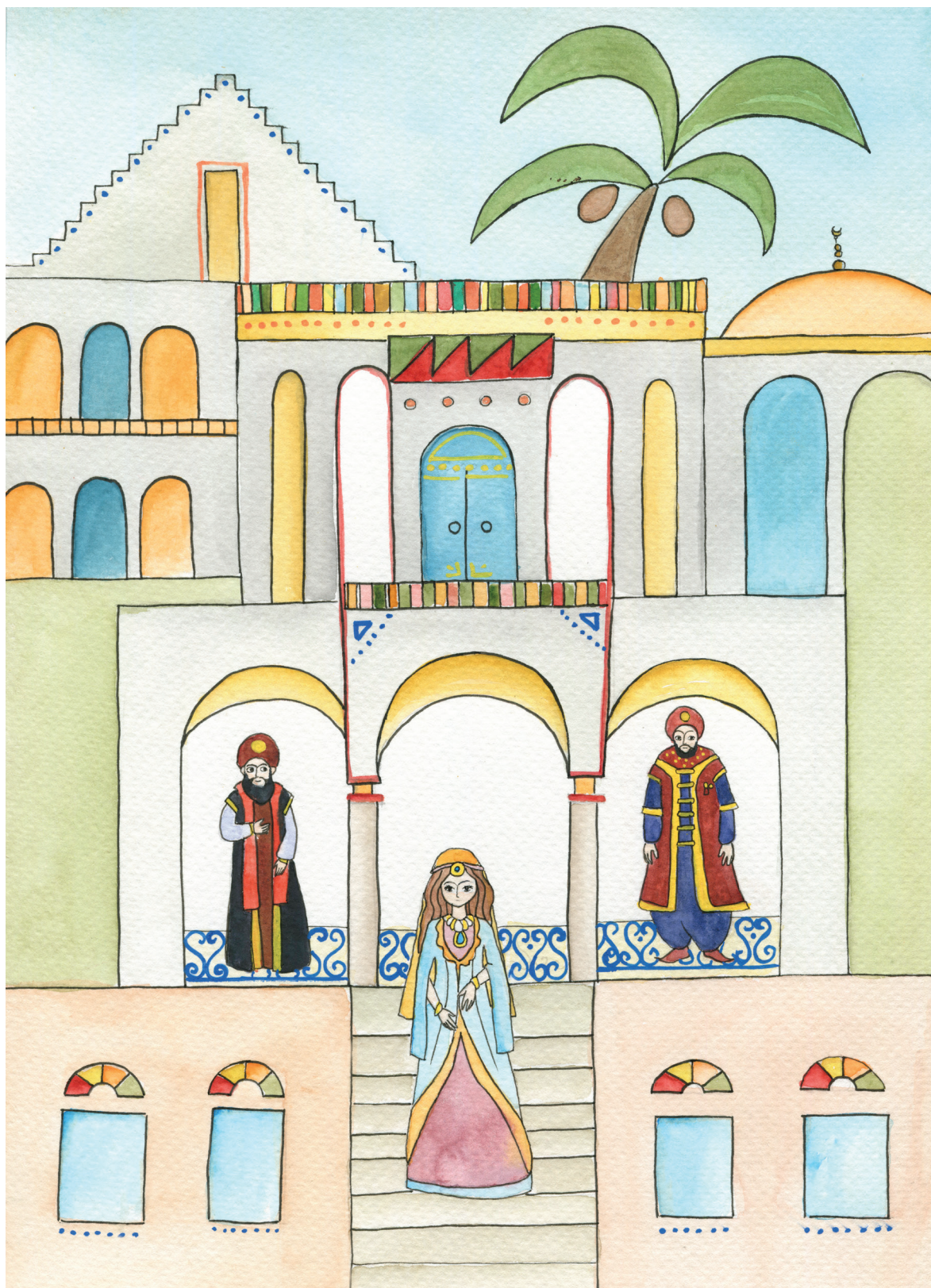
آمنة - وتدعى مَنانة - بنت الأمير علي باي بن حسين بن علي باني البيت الحسيني، وأمها جارية من أعلاج القرج اسمها (محبوبة) كان تزوجها علي باي في الجزائر مدة اغترابه مع أخيه محمد في طلب الملك.

تزايدت آمنة خلال عام 1172 وتربت مع أخيها حمودة في قصور باردو، وزاوت برفقته القراءة وحفظ القرآن الكريم على يد المربي العالم حمودة باكير، فأخذت عنه ما يلزم من فقه الدين ومبادئ النحو والعربية والحساب، وشبّت في ذلك المحيط الراقي الذي لم تفارقه بعد أن تزوّجت بابن عمّها محمود بن محمد الرشيد باي.

ولما تولى أخوها حمودة باشا الإمارة - سنة 1196 - وسافر بالمحلة في تفقّد الأوطان اصطحب معه أمّه محبوبة وابن عمه وصهره محمود باي وكذا السيّدة آمنة، فتعرّفت ببلدان المملكة وزارت معالمها المشهورة مثل ضريح الصحابي الكبير أبي زمعة البلوي بالقيروان، وقبر الصحابي أيضا أبي لبابة بقابس، فكانت أينما تحلّ تترك من الصدقات وأثار المبرات ما تجد ثوابه مقدّمًا عند الله.

وحظيت آمنة مدّة حياتها بسعادة نادرة فإنها شاهدت اعتلاء أخيها حمودة باشا إلى ذروة الأمارة وشاركت بعد وفاته في صعود حليلها محمود باي للملك في وقائع سجلها التاريخ يطول شرحها هنا. روى الوزير أحمد بن أبي الضياف - وكان شاهد عيان لتلك الحوادث - أن في يوم ولاية محمود باي (تاسع المحرم 1230) جمعت زوجته بنت عمه ابنيها وهما : حُسَيْن باي وشقيقه مصطفى باي وأحضرت لهما المصحف وتعاهدا عليه في وفاء كل منهما لأخيه ومعرفة الصغير لحقّ الكبير في التقدم، وتبرأت ممن نكث منهما العهد، ودعت عليه وهي مكشوفة الرأس، ثم قال ابن أبي الضياف عقب ذلك «سمعنا منهما ذلك مراراً»¹⁰⁵ وقال في مكان آخر من تاريخه :

105. تاريخ ابن أبي الضياف ج 3 ص 271 (خط).



«وكان بين الأخوين (حسين ومصطفى باي) من المحبة والألفة ما لم يسمع بمثله، أحكمت عقد ذلك أمهما»¹⁰⁶.

لكن الأمر الذي يوجب على التاريخ تخليد أثره وتسجيله في حياة هذه الأميرة الجليلة هو اهتمامها الكبير بمستقبل البيت وحفظ نسله سالماً، مسألة اجتماعية من الأهمية بمكان.

«تلقينا مشافهة من ثقات حفدتها أنها قبل وفاتها بقليل جمعت أفراد العائلة المالكة على مأدبة أعدتها لذلك وعلى أثرها أبدت من النصائح العالية ما ينفع سياسة الملك، ثم بسطت من القول في مضرة تزويج شباب الأسرة بقريباتهم - بنات العائلة نفسها - لما ينشأ عن ذلك من ضعف النسل واضوائه ولو بعد حين».

كلنا يعلم ما قاله الرسول الهادي صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن : (لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يُخلق ضاويًا) أن ضعيفاً مهزولاً - وقال الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه (يا بني السائب ! إنكم قد أضويتم، فانكحوا في الغرائب) يعني الأبعد - والعرب تقول : إنَّ ولد الرجل من قرابته يجيء ضاويًا¹⁰⁷.

فأنت ترى أنَّ السنة المحمدية وأقوال الحكماء متضافرة على أن التزاوج بين الأقارب مضرّ بالنسل، مضعف له بخلاف الاقتران بالأبعد يفيد الجيل المقبل صحةً وسلامة، فما أشارت به بل حتمته الأميرة آمنة على أفراد أسرتها هي عين الحكمة المرتكزة على قاعدة المحافظة على الجنس، قاعدة أيدها العلم والطب العصري وأثبتتها التجارب الصحيحة.

امثل أهل البيت الحسيني العمل بهذه القاعدة من ذلك الوقت ولم يحرقها إلا من عهد غير بعيد احتراماً لما تعاهد به أسلافه من زمان.

106. التاريخ ابن أبي الضياف ص 184.

107. راجع كتاب «أحياء علوم الدين» للإمام الغزالي.

ولنختم ترجمة هذه الفاضلة بما ذكره شيخ التاريخ التونسي أحمد بن أبي الضياف، قال رحمه الله تعالى :

«توفيت السيّدة آمنة زوجة الباي وأم أولاده وبنت عمه ليلة الثلاثاء ثالث ربيع الثاني من سنة 1238، وحزن الباي لفقدائها حزناً لم يعهد مثله، ووضعت على النعش أمام (باردو) وأولادها وراءها راجلين إلى تربة أبيها، وعتق عليها ما ينيف على المائتين رقبة، وسار نعشها مظلاً بصُحف حريتهم، وأفاض زوجها الصدقات وسرّح المساجين وحزنت لفقدائها المملكة سنة كاملة لكمالها الذي صيرها في نفس أهل الحاضرة بمنزلة الأمّ الشفيقة الرقيقة، وكان أخوها حمودة باشا يبرّها برور أمها، وهي من المعدودات في أفراد النسوة من جهة حسب النسب : أبوها الباشا على باي، وجدها باني البيت حسين بن علي، وعمها وحموها محمد باي بن حسين، وأخوها، حمودة باشا وعثمان باي، وزوجها الباشا محمود باي، وولداها الباشا حسين ومصطفى باي وما منهم إلا من تولى الإمارة، وإلى ذلك يشير العلامة الشيخ ابراهيم الرياحي من قصيدة في رثائها¹⁰⁸.

سَكَنْتُ فسيحاً في الجنان ظليلاً وقطوفها قد ظَلَّتْ ظليلاً
لا تحسبوها في الثراء مقيلاً يهوى الثرى أن يكون مقيلاً
بنت الهمام ابن الحسين على الملك الذي اتخذ الصلاح خليلاً
أم الملوك وأختهم وكفى لمحمود أمير المؤمنين حليلاً

108. ابن أبي الضياف ج 5 ص 6 وما بعدها (خط).

فاطمة عثمانة

هي فاطمة بنت محمد بن عثمان بن الحاج حسين بن أحمد بن محمد بن عثمان باي، نشأت هذه الفاضلة نشأة عفاف وصيانة في حذر بيت أبيها وكان من أعيان العصر، فلقنت تقاليد التربية الإسلامية العالية، وزودت من المعارف ما هو كفيّل بأن يصيرها ربّة منزل كاملة. ولما شبت وترعرعت زوّجها أبوها بشاب من ذوي الأقدار وأصحاب الرتب الدولية - وهو محمد قائجي - فولدت ولدًا سمي عليًا - ويدعى علالة - ثم توفي الزوج وبقيت مدّة هاجلة على صغر سنّها فخطبها حينئذ ولي عهد المملكة الأمير حسين بن محمود باي العصر.

أثر حسين باي الاقتران بفاطمة عثمانة لا لنسبها الرفيع وجمالها البديع فحسب، بل لما اتّصفت به من النحائز العالية والأخلاق الحميدة التي ميّزتها من بين قريناتها ذوات الحسب والنسب من بنات تونس، لا سيما وبيت الإمارة في حاجة وقتئذ إلى جلب خواطر السكّان وتأليف النفوس حول العرش، فتزوّج بها في حدود سنة 1222 وتبنى ولدها علالة قائجي وأنزله منزلة ابن الصلب واغتبط بصحبته أيما اغتباط مدّة ولايته العهد، قاضيًا أوقاته بين مباشرة أحوال البلاد وقد القيت مقاليدها إليه لكبر سن والده، وبين التنزه بقصر المرقية - خارج تونس - في زمن الربيع وبقصر العبدلية بالمرسى في زمن القيض.

نقل رواة الأخبار في خلال عام 1231 - (1818) م - وفدت على حاضرة تونس زوجة سلطان الانقليز جورج الرابع وهي الملكة (كارولينه دي برانشفيك) بقصد النزهة والاطلاع على المملكة، فاحتفل الباي بمقدمها وكلف ولي عهده بالقيام بحق الضيافة، فتفنن الأمير حسين في تعظيم نزلها وإكرامها، وكانت فاطمة خير معين له في هذه المهمة، من ذلك أنّ الملكة (كارولينه دي برانشفيك) رغبت في فداء أسارى النصارى المقيمين بالحاضرة التونسية فسبقتها الأميرة فاطمة بتسريح كافة الأسارى خدّمة قصور الإمارة من غير فداء، وإكرامًا لها وإجلالًا للضيافة، ولقد حمدت لها الدولة الانقليزية هذه المزية وكاتبتم حماها برفع جزيل الشكر للمنعمّة على عالي إحساسها الإنساني، ولقد متّع الله تعالى الأميرة فاطمة بحياة سعيدة رغدة في ظل زوجها الذي ترّبع على دست الإمارة بعد أبيه - رجب سنة 1139 ورزقه منها أبناء توارثوا الملك بعده منهم محمد والصادق وعلي.



ولم تزل في عزها الشامخ إلى أن لبت داعي ربها الكريم مأسوفاً عليها من سائر طبقات الناس . وعلى ذكر وفاتها أورد الوزير أحمد بن أبي الضياف العبارة الآتية منوهاً بسجاياها الغالية وعلو منصبها القومي، قال رحمه الله¹⁰⁹ :

«وفي عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة 1242 توفيت زوجة الباي وأم بنيه، وطليلة يمينه، حفيدة عثمان داي بمرض أصابها عقب الولادة، ودفنت من الغد في موكب مشهود في تربة عم أبيه، وحزن الباي لفقدائها ورؤية صغار أولادها بعدها، وزعزع المصاب طود ثباته، وأراه من فجائع الدهر ونكباته، ولبس هو ورجال دولته شعار الحزن عاما كاملاً . ويحق لها ذلك فلقد كانت من الكرم وعلو الهمة والسياسة في جلب القلوب بتحبيب زوجها بالمكانة المكيّنة، ترى نفسها واحدة من نساء هذه المدينة، توقّر الكبيرة وترحم الصغيرة، وتجهز اليتيمات، وتعين عن النوائب، وتعرف للناس أقدارهم، إذا وقعت وليمة عند إحدى خدمها مهنية، وتقول له :

- إن عادة بلادنا أن صاحب الوليمة يستعين بأقاربه في حاجاتها ولوازمها، وفي المثل (صاحب التاج يحتاج) وساءني حيث لم اعرك في وليمتك يدًا ولا لسانًا، غير ذلك من الكلام المنظوم في مثل هذا الأسلوب، المالك لأحرار القلوب، ترى الفضل لمن زارها وأم دارها، قابلها الله تعالى برحمته وجزيل إحسانه».

تربية التونسيات المنزلية

أصبح البحث عن تربية الفتاة المسلمة وكيف يجب أن تكون، من أعضل المسائل الاجتماعية وأعقدها، وقد أفاض كتاب الشرق في هذه المسألة الحيوية سيولاً من المداد ملأت أودية الصحف والمجلات، وسدّت فراغاً العربية كبيراً من المكتبات العربية العصرية وصارت الشغل الشاغل للأفكار والعقول . فمن منكر لأصل مشروعية تعليم المرأة، مشنّع على القائلين به، ومن مطالب لها بالمساواة بالذكور في التعليم، ومن معتدل يذهب الوسط بين الرأيين، ولا يرى

109. تاريخ ابن أبي الضياف ج 4 ص 289 (خط).

أبدًا غناء للمرأة عن تلقي العلوم الضرورية مثل القراءة والكتابة، والحساب، ودروس الأشياء، واللغة، والتاريخ وتقويم الممالك، والآداب الإسلامية، وتدبير المنزل، وممارسة الصناعة النسائية، لتكون المرأة قوة حيّة نامية في الأمة، دافعة للنهضة، تشغل مركزًا ممتازًا في الهيئة الاجتماعية الإسلامية، بعد أن تخلّت عنه منذ قرون.

ولم تزل هذه المسألة الحيوية مدار أخذ بين كتاب العربية وتدقيق علماء الاجتماعيات من المسلمين حوالي قرن كامل وستبقى كذلك إلى ما شاء الله حتى يجد لها المسلمون حلًا مرضيا لا غبار عليه.

ومن يستطيع أن ينكر على أبناء العروبة انصرافهم بكليتهم لحلّ هذه المسألة العويصة؟ وهي مسألة مسائل جميع الأمم. وحلّها أعجز فطاحل علماء الغرب، بل يحق لهم أن ينصرفوا إليها قبل غيرها لأن أقلّ عثرة تحصل فيها توقعهم في أشدّ أنواع الارتباك والاضطرابات. وكل حل يجدونه لا يكفل لهم إعزاز الملة الإسلامية يكون نصيبه الفشل والرفض.

نحن اليوم في احتياج شديد الى فتيات مسلمات متعلّقات لكفالة مستقبلنا، يفقهن حالة العصر الذي وجدنا فيه، محرزات على تربية قومية صحيحة نافعة، تنهض بالأمة وتوقظ الفكر القوميّة. وألا تحوّل الدواء داء، وانقلب الوجود فناء وساءت العقبي - والعياذ بالله !

معلوم أنّ فتيات اليوم هن أمّهات الغد، فإذا أسيئت تربيتهم كان تعليمهن ناقصًا أو شاذًا عن أفكار الأمة، دبّ في قلبهن دبيب التراخي إلى معاهد الروابط الملية فتضعف القدوة، وتخلل الملكات ويسقط كيانهما، وحينئذ يكون وجود هؤلاء الفتيات بلاء عظيمًا على الملة، وخطرًا مداهما على القومية، وفي هذه الحال يكون تعليمهن وتربيتهم على تلك الصورة الناقصة شرًا من استجهالهن بلا خلاف.

جاءت الشريعة الإسلامية بالبحث على تربية وتعليم الإناث مثل الذكور سواء بسواء. وهي الشريعة السماوية الوحيدة التي ساوت في ذلك بين الجنسين، فقد ورد في الاثر عن النبيّ : طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، كما ساوت بينهما الحقوق والتكاليف لم تجعل فرقًا

في ذلك بين ذكر وأنثى، وغاية ما هناك أنها ميّزت الرجل بحق الرياسة وجعلته قوَّامًا على المرأة نظرًا لما أودع الله في خلق الجنسين، فقد وهب الرجل مضاء العزم وقوَّة الإرادة، وأعطى المرأة رقة العواطف وجمال الاحساسات، فالرجل للحكم، وتيسير الأعمال، والمرأة للحب والحرمة وتأليف القلوب. وجعل الرجل قوَّامًا على المرأة ضمن القيود المقررة في معاجم الشريعة أمر لازم لتمكين اللحمة بين الجنسين. ولا يلزم من تميز الرجل بحق الرياسة اختصاصه دون المرأة بما سوى ذلك من الحقوق، وهذا لا خلاف فيه بين المسلمين. إنّما النزاع في مفهوم العلم الذي ينبغي للمرأة ونوع التربية التي ترقّي عواطفها، وتقوي شعورها، وكيف يجب أن تكون.

هذه المسألة الشاغلة للمسلمين اليوم.

لم يكن من مقصدنا إبداء رأينا - في هذا السفر التاريخي - في الطريقة المثلى التي ينبغي اتباعها في تربية المرأة، مع احتياجنا إلى ذلك، وإنّما غايتنا الاقتصار على عرض تراجم شهرات بلادنا، وجمع شوارد أخبارهن، والتنويه بذكرهن، والتخليد لشهرتهن، وإحياء لفضيلة الاقتداء بالسلف الصالح، عسى أن ترسم فتياتنا العصريات أثرهن. وينسجن على منوال الصالحات، فيمددن أيديهن إلى الرجال ويتعاونن معهم على ترميم ما تداعى من وحدتنا، وتشبيد ما تهدم من صروح مجتمعتنا حتى يتراجع إلى القطر شبابه، ويعود إليه رونقه وإهابه، وإذ لا عبرة أبلغ، ولا موعظة أجمل من سوق التاريخ.

ولكن لما كان من أنفس ما يجب تدوينه ضمن هذه الأخبار، ويلتحق بالبحث عن الحقائق والمعالم والآثار، مبحث التربية الاجتماعية والمنزلية للبنات المسلمات خلال العصور الأخيرة بالملكة التونسية إلى عهد الاحتلال الفرنسي، فقد أحببنا أن نذكر موجزًا عن هذه الطريقة المتبعة في الحاضرة، والقيروان، وسوسة، والمهدية، وصفاقس، ونابل، وباجة، وغيرها من المدائن الكبيرة، وهي وإن اختلفت في بعض الجزئيات التي تناسب حال كل مدينة، فإنها متفقة من حيث الأصول والتطبيقات، ولذلك لا نرى فائدة في التفصيل.

توجد في أحياء مدائن البلاد دُورٌ معروفة بالصيانة والعفاف والتقوى والخبرة بالصناعات اليدوية مثل: الخياطة والفصالة والتطريز والغزل والنسيج والتشبيك إلخ، تعرف (بدار المعلمة)

يؤمها البنات من سائر الطبقات على النحو المعروف في المدارس اليوم، فيقطعن فيها سحابة النهار، منكبات على معاطاة الأشغال المنزلية وتعلم الصناعات، وهنّ اللاتي يقتنين أدوات التعليم مثل : الإبر، والمقصّات، والحلق، والخيوط، وآلات الرسم والتطريز (كالقرقاف) ونحوه مما يعدّ لصوغ الأقمشة بأسلاك الذهب والفضة وزركشتها بالحرير. والمعلمة تقوم بتدريبهن على مختلف الصناعات وتلقينهن فروضهن الدينية والآداب وغير ذلك مما ينبغي لتثقيف عقولهن وتربيتهن، فيتدرّجن فيها ماهرات متعلّمات، يقاسمن الرجال الاكتساب والأعمال، يساعدنهم على توفير الثروة العمومية في البلاد.

يستفاد من كتب التاريخ والتراجم أنّ «دار المعلمة» كانت موجودة بالقطر الافريقي منذ عهد بعيد جدّاً، فقد روى الشيخ محمد الربيعي المفرغي - من أعيان تونس في القرن التاسع - أنّ والدته «كانت امرأة صالحة الحال وكانت معلمة البنات تعلمهن القرآن والغزل والطرز في منزلها.. وكانت البنات يغزلن الصوف مصليات على النبي - صلى الله عليه وسلم - حسبما هي العادة في ذلك عندهن»¹¹⁰.

ولدينا الآن أصناف كثيرة من المصنوعات النسائية لها رواج عظيم في أسواق المملكة مثل الزربية والبرانيس والجُبّ وبقيّة المنسوجات الأخرى على اختلاف أشكالها وأنواعها من الأصواف والأوبار والشعر والحرير، ناهيك بما يصنع منها في القيروان ونابل وقفصة والجريد وجهات الجنوب : وهي آثار ناطقة بما لدار المعلمة القديمة من إذكاء قرائح المرأة التونسية، وشاهدة بفضل ما لها من جزيل الفائدة وجميل العائدة على هذه البلاد.

وقد تكون المعلمة - وليس الأمر بالنادر خصوصاً في الحاضرة - عارفة بالقراءة والكتابة فتعلمها للفتيات، وتلقنهن حفظ بعض السور من القرآن الكريم وغير ذلك مما تستقيم به العبادات والشعائر الدينية.

110. كتاب ابتسام الغروس من مناقب سيدي أحمد بن عروس. طبعة تونس 1302 ص 201.

وتمكث الفتاة التونسية ملازمة لهذه المدرسة التطبيقية إلى أن تبلغ أشدها - في الغالب إلى الثالث أو الرابع عشرة من سنّها - ثم تعتزلها وتنعكف في بيت أبوها على اقتباس التربية العائلية، واستكمال الفضائل الاسلاميّة، وممارسة السياسة المنزليّة، وأشغال البيت بالطرق العلميّة، وهكذا تتدرّبن على الحياة الاجتماعيّة إلى أن تصبح سيّدة لبيت جديد.

على أنّ حظ الفتيات من العلوم لم يكن معدومًا في الحاضرة بل رأينا وسمعنا بكثير من الآباء لهم عناية خاصّة لتنوير عقول بناتهم ولا يكتفون أن يتقن حفظ «الجوهر» أو العقيدة السيوطية وما جرى مجراهما من متون العقائد.

نقل الشيخ أحمد بن أبي الضياف في ترجمة الشيخ أحمد بن عبد الله السوسي - من علماء القرن الثالث عشر - إنّ هذا الفاضل كان له بنات علّمن القرآن والأدب وطريق التصوف. ثم قال : «سمعت والدي أنّه (أي والده الحاج بالضياف ابن عمر العوني المتوفي سنة 1254) أنّه أراد خطبة إحداهن فاستشار في ذلك الشيخ المفتي مصطفى البارودي فقال له :

- لا تفعل، فإنّها لا ترضى بأمثالنا ولا ترى كفوًا لها إلّا من كان على قَدَم والدها في العلم والصلاح»¹¹¹.

قلت ومن يطالع كتب التاريخ التونسية يرى في هذا الدور أخبار النساء القارئات العارفات الحافظات ما لم يكن يتوقعه.

وفيما نعلم أن المصلح التونسي الكبير المنعم (خير الدين باشا) كان عقد النية أيام وزارته على تأسيس مدرسة خاصّة بالبنات المسلمات سادّة لثغر الحاجة، يضارع بها المدرسة الصادقية التي أنشأها للبنين. ولو أفسح الله في مدّة وزارته لأضاف هذه الحسنة إلى جملة أعماله الماثورة المشكورة - طيب الله ثراه.

111. تاريخ ابن أبي الضياف ج 7 ص 22 (خط).

وكيفما تصورنا حالة العهد الماضي فمن الغبن أن ننكر ما لدار المعلّمة من المزايا العديدة على هذه البلاد. وهي لا تعرف معهداً سواها لتربية وتعليم البنات. وقد انبتت لنا خير الأمهات. وهنّ وإن لم يحرزن على شهادة (الباكالوريا) ولا (البروفي) غير أن معلوماتهنّ كانت كافية وافية لاحتياجات الأمة التونسية في ذلك العهد.

ألم تكن جدّاتنا وأمّهاتنا ناشئات هذه التربية القويمة؟ وقد قضين أعمارهنّ سعيدات، وعاشرن أزواجهنّ مرفهات، عشرة الفاضلات الصالحات وأدركن أسنى الخطوط وتمتعن بأهنا حياة؟

أجل! نحن لا ننكر أنّ حياتنا العمومية - والزمان قد استدار - تحتم علينا التوسع في المعارف العقلية بصورة لم نكن في حاجة إليها فيما سلف من العصور وذلك لاستيفاء الحاجيات والكماليات التي دخلت علينا من الحضارة الغربية ولم تكن معهودة لنا من ذي قبل. لكن لا ينبغي لنا أن ندع المرأة جانبا دون أن تنال قسطها من تلك المعارف وهي شريكة الرجل في تحضير الشبان للمستقبل لأنّ شبّان اليوم هم رجال الغد.

يونية 1917

مستدرک الخاتمة

لكل مقام مقال

في أثناء عام 1917 كتبتُ ما تقدّم كخاتمة لتأليف «شهرات التونسيات» وأبدتُ رأيي لما ينبغي أن يكون عليه تعليم البنت التونسية في ذلك الأوان، وفي واقع الأمر لم أكن مرتاحاً في قرارة نفسي لهذه الطريقة غير الكافية لتربية فتياتنا وتأهيلهن للمساهمة في الحياة القومية ومشاركة الرجل في النهوض الاجتماعي.

وكان لي العذر فيما صرّحت به من الاكتفاء بأن تكون للبنات ثقافة متوسطة أو دونها لتصبح أمّاً صالحةً تغذي أولادها بمبادئ التمسك بالقومية والدفاع عن القيم الوطنية، وكلّنا يعلم ما كان يسعى إليه المحتلّ الأجنبي بكلّ قواه للوصول إلى إدماج العنصر التونسي في بودقته بل في جنسيته.

واكتفى أن أورد هنا شاهداً ربما كان السبب الأصلي الذي حملني على التخوّف من انخراط بناتنا في سلك التعليم الابتدائي المنتشر يومئذ في البلاد، ذلك أنني سمعتُ بأذني من أحد كبار أهل الحلّ والمقعد من الفرنسيين الجملة الآتية يهمس بها إلى بعض غلاة المعمرين: «إنّا لم ننجح - بكلّ أسف - بسياسة تعليمنا الجارية إلى كسب الشباب التونسي وجلبه للانضمام إلى جنسيتنا والاندماج في عنصرنا، فيجب علينا حينئذ أن نغيّر سلوكنا وأن نجتهد في جلب الفتيات التونسيات إلى مدرستنا، لأنني اعتقد أن المرأة أيسر انقياداً من الرجل وأسهل مطاوعة منه...»

فأه هذا الموظف بالعبرة المتقدمة بعد مرور زمن قصير عن وقعة الزلّاج، وقد نفى عقبها عدد كبير من المواطنين إلى أقاصي البلاد، ولم يمحُ غير قليل حتى أسست حكومة الحماية مدرسة خاصة للبنات المسلمات (مدرسة نهج الباشا) وأنطت إدارتها إلى أرملة موظف فرنسي قديم، واختارت كذلك كل المعلمات اللاتي عُيّنَ معهن من بين الجالية الحامية، واندرس تدرّس المعارف فيها باللغة الفرنسية.

نعم، أضيف إلى التعليم سويغات قليلة في الأسبوع يُلقى فيها بعض الشيوخ المؤدين الطاعنين في السن درسًا في مبادئ التوحيد الإسلامي، وما كان ذلك إلا إرضاءً لخاطر الآباء فحسب.

ومن هنا يفهم أن الخطر أضحى يهدد القومية التونسية تهديدًا مدبرًا بواسطة تعليم البنات، إذ أن الساسة المحتلين اعتبروا هذا المنهج الوسيلة الناجعة للقضاء على اللغة العربية وعلى مظاهر القومية معًا، لا سيما وأن التجربة بالفتيات الإسرائيليات أثبتت نجاح تلقينهن اللغة الفرنسية واختصاصهن بدراساتها مما جعلهن لا يتكلمن إلا بها، ولا يقلدن إلا آدابها، ولا يبعين عنها بديلاً.

ففي حساب أولئك السياسيين أن البنت المسلمة - وهي أم الغد - متى تغذت في صغرها بالمعارف والتقاليد والعادات بما كان فرنسيًا بحثًا فإنها ستغرس ذلك في نفوس أولادها ذكورًا وإناثًا، بحيث لا يمضي نصف قرن أو نحوه على هذا السلوك حتى يصبح الشعب التونسي فرنساوي النحلة والثقافة والتربية والتفكير.

دام هذا الخطر المحدق يهدد البلاد مدة سنين، ورأيت أنا - وكنت في مقتبل الشباب - أن اعترض على طريقة التعليم المومي إليها، مُشيرًا باستعمال ما كان موجودًا عندنا من قديم الزمان، وهي (دار المعلمة) بشرط أن يسعى أهل الغيرة من الوطنيين في إدخال ما يناسب من الإصلاح ووسائل التدريس العصرية عليها، مثلما تمّ وقتئذ من تحويل (الكتاتيب) إلى (مدارس قرآنية ابتدائية)، كل ذلك فرارًا وتقصيًا من الاحبولة المشتبكة التي نصبها الاستعمار للقضاء على اللغة العربية وعلى القومية الوطنية.

ومن الواضح أن السفور الكامل للمرأة ما كان ليطرق أفكار الوطنيين، إذ أنه هاجم المجتمع التونسي في ذلك الحين لما بقي للقومية من أثر، على أن كثيرًا من كبار أصدقائنا وأحبابنا من أهل العصر - أمثال البشير صفر، وعلي باش حانبة، وعبد الجليل الزاوش، ومحمد الأصرم، وغيرهم - كانوا يودون رفع الحجاب، لكن بعد أن تبلغ البلاد مستوى علميًا وأخلاقيًا يكفل حصانة المرأة وحمايتها من عواقب التبرج، وغوائل التهتك، الدافعين بها لا محالة إلى الاندماج المرجو من المحتل.



أجل، ربما يتوهم بعضهم أنّ هذا السلوك كان سلبياً في حدّ ذاته، إلّا أنّه كان في الحقيقة الوقاية الحامية، والسيّاح المنيع للقوميّة، فكان اتباعه ضربة للحفاظ على مقومات الوطنية إلى أن يسمح الزمان بما يفرج الغمّة عن الأمّة.

وبالفعل، يعد فترة نصف قرن أو ما يقرب منها من الله تعالى باستقلال البلاد، وانسلاخها من رقبة الاستعمار، كما أشرتُ إليه في طليعة الطبعة الثانية لهذا الكتاب.

فلله سبحانه المنّة والحمد على ما أنعم وبه تفضّل.

صلامبو (قرطاجنة)

ديسمبر 1965



الفهرس

5	تصدير
9	إهداء الكتاب
11	تقديم الطبعة الثانية
13	توطئة

الدور العربي

16	امتزاج العناصر
19	إكرام ليلة
20	الحفيدة الخطابية
22	صنديدة بربرية : الكاهنة
25	احترام حقوق المرأة
27	المصاهرات بين إفريقية والعراق
29	أروى القيروانية
35	طبق الورد

الدور الأغلبية

38	تمهيد
38	شهامة عربية
40	عدوة القرويين
41	أمّ البنين الفهرية
44	فقيها القيروان : أسماء الفراتية
46	خديجة السحنونية
49	مهرية الأغلبية
51	تربية الجوّاري
52	حرارة الغرام
53	خفايا القضايا



- 54 آثار النساء
- 56 المصاهرات بين العباسيين والأغالبة
- 57 ولا غالب إلا الله

الدور العبيدي

- 60 تهذيب البربر
- 61 حسب الواحد الواحدة

الدور الصنهاجي

- 64 تمهيد
- 66 الأميرات الصنهاجيات
- 66 أمّ ملال
- 72 أمّ العلو
- 75 فاطمة الحاضنة
- 78 أمّ يوسف
- 80 بلارة
- 83 خدّوج الرصفية
- 85 زحفة الأعراب
- 87 الجازية الهلالية
- 89 المستعمرات العربية
- 91 ميمونة الهذلية

الدور الحفصي

- 96 تمهيد
- 96 فرجة النساء
- 97 مفاخر الملوك
- 98 باب البنات
- 101 المآثر الخالدة
- 103 البيئة الحفصية
- 105 زينب التيجانية



108.....	أمّ العلاء العبدرية
110.....	سارة الحلبيّة
113.....	السيدة المنوبية
116.....	شاعرة شريفة
118.....	حومة العلوج
120.....	مريم الزناتية
120.....	الحاسرة جاسرة
123.....	سوق الكلاب

الدور التركي

126.....	تمهيد
127.....	العقائل الحفصيات
129.....	عزيزة عثمانة
132.....	التسامح الإسلامي

الدور الحسيني

136.....	تمهيد
136.....	زخرف اللباس
138.....	أمّ الأمراء أمنة
142.....	فاطمة عثمانة
144.....	تربية التونسيات المنزلية
150.....	مستدرك الخاتمة



مصنفات المؤلف ونشريات

1330	طبع تونس سنة	بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق
1330	طبع دمشق سنة	رسائل الانتقاد (النقد الأدبي) لابن شرف القيرواني
1330	طبع دمشق سنة	ملقى السبيل (في الوعظ والحكم) لأبي العلاء المعري
1910	طبع بلرم بصقلية سنة	أعمال الاعلام (في تاريخ إفريقية) لابن الخطيب الأندلسي
1336	طبعة أولى - تونس سنة	خلاصة تاريخ تونس
1336	طبعة ثانية - تونس سنة	» » »
1336	طبع تونس سنة	المنتخب من الأدب التونسي
1338	طبع تونس سنة	الإرشاد إلى قواعد علم الاقتصاد
1340	طبع تونس سنة	وصف إفريقية والأندلس، لابن فضل الله العمري
1343	طبع تونس سنة	كتاب يفعل (بحث لغوي) للصغاني
1350	طبع تونس سنة	آداب المعلمين، لمحمد سحنون القيرواني
1352	طبع دمشق سنة	التبصر، بالتجارة للجاحظ
	طبع مصر	الجمانة في إزالة الرطانة
1353	طبعة أولى تونس سنة	شهرات التونسيات
1966	طبعة ثانية سنة	شهرات التونسيات - وهو هذا الإمام المازري
1958	طبع تونس سنة	رحلة التجاني
1965	طبع تونس سنة	ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية



مؤلفاته باللغة الفرنسيّة

طبع تونس سنة 1905	الاستلاء الاسلامي على صقلية
طبع تونس سنة 1917	امتزاج العناصر التي يتألف منها الشعب التونسي
طبع تونس سنة 1018	تقدم الموسيقى بالشرق والأندلس وتونس
طبع تونس سنة 1930	بحث في دينارين نرمانيين ضربا بالمهديّة
طبع تونس سنة 1933	شاهد عيان لفتح الأندلس
	مدائن اضمحلت في البلاد التونسية



فكرة وإشراف

الأستاذة نجلاء العلاني بوحولة
المديرة العامة للكريديف

المتابعة والتنسيق

سلاف بن فريخية

الرسومات الفنيّة

درة البرجي

التصميم والإنجاز الفني

هندة الجلاصي

رقن النصوص

ماجدة الساحلي



شارع الملك عبد العزيز آل سعود - نهج فرحات بن عافية - المنار 2 - 2092 تونس
الهاتف : 71 885 322 / 71 885 717 (216) - الفاكس : 71 887 436 / 71 882 893 (216)
البريد الإلكتروني : Directeur.General@credif.rnrt.tn

ردمك : 7-4-0959-9973-978

مطبوعة : ساناكت

